الموسوعات والمعاجم

١ ـ معالم وأعلام فى بلاد العرب تعليق الأستاذ أحمد قدامة ٠
القسم الأول القطر السورى ٠
الجزء الأول ـ الحرف ا ـ خ ٠
دمشق سورية ـ طبع بمطبعة الف باء ٠

٢ ـ اللسان العربى ٠
مجلة دورية للأبحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب فى العالم العربى ٠
العدد الثالث ـ يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية ٠

...

عرض ونقد :
علی أدهم

في النهضة الثقافية التى شملت الدول العربية ناحيـــة من نواحى النقص تلفت النظر وتستوجب العمل على استدراكها ، وهذه الناحية هى عدم وجود موسوعة باللغة العربية تســتوعب المعلومات العصرية وتقدم للقارىء خلاصة وافية عنها ، وعندنا بطبيعة الحال موســـوعة البستانى وموسوعة فريد وجدى ، وهما من غير شك أثران نفيسان ، والبســتانى ووجدي جديران بالتقدير والثناء على ما بذل من جهد واحفلا من متاعب ، ولكن هذين الاثرين قد استنفدا مهمتهما وحققا الى حد لا بأس به الغاية التى رمى اليها المؤلفان الفاضلان ، ولم يعودا يصلحان لمواجهـــة الموقف الراهن فى البلاد الناطقة بلغة الضاد ، وفضـــلا عن ذلك فان فى تأليف هاتين الموسوعتين ناحية ضعف جد خطيرة ، وهى فرط اعتماد المؤلفين القادرين على نفسيهما ، فليس من المعقــول ولا من الميســـور ان يكون البستانى أو وجدى قد تخصص فى كل ناحية من نواحى المعرفة المتشعبة حتى استطاع ان يكتب خلاصة شاملة ومجملا دقيقا وافيـــا ، والطـــاقة الانسانية لها حدودها وملكات الناس واستعداداتهم متفاوتة ، ومحـــاولة السيطرة على شتى فروع المعرفة فى العصر الحديث بوجه خاص محاولة تهزم أقوى عزيمة وتعجز أعظم العقول ، وقد استغرقت كتابة الموســوعة الفرنسية التى اشترك فيها ديدرو واخوانه أربعة عشر عاما ، والموسوعة البريطانية الحديثة قد اشترك فى كتابتها عدد ضخم من المتخصصين فى كل ناحية من نواحى المعرفة ، والمفروض فى الموسوعة أنها معجم يعطيك خلاصة وافية صحيحة ومعلومات دقيقة مركزة فى حيز محدود ، ويراعى

فى هذه المعلومات وصل القديم بالحديث وان تكون مرتبة حسب الحروف الهجائية فى الاعم الاغلب ، وهى بحكم موضوعاتها المنوعة وما تقتضيه من سعة المعرفة والقدرة على استخلاص اللبـــاب وبراعة العرض والتلخيص والعناية بامهات الامور لابد ان يضطلع بها عدد كبير من المتخصصين فى كل فرع من فروع المعرفة ٠

وقد اقترح بعض الناس فيما أعلم ترجمة الموسوعة البريطانية أو احدى الموسوعات الاوربية الاخرى البارزة الى اللغة العربية ، وقد يكون لهذا الاقتراح قيمته ، ولكنه من ناحية أخرى تسليم بالعجز والقصـــور يمس الكرامة ويؤذى الشعور ، وبخاصة بعد ان نجد فى شتى الاقطـــار العربية عدد من المتخصصين فى كل فرع من فروع المعرفة ، ولست أشك فى ان لهؤلاء المتخصصين من الكفاية العلميـــة ما يجعل بحوثهم مراجع جديرة بالثقة والتقدير ٠

وقد ظهرت الموسوعات فى أوروبا قبل عهد احياء العلوم ، وطبعت الطبعة الاولى من الموسوعة البريطانية سنة ١٧٧١ ، وهناك موســـوعات فرنسية والمانية وايطالية ويونانية وروســـية ، وقد قام اليهود بعمل موسوعة خاصة بهم ، والموسوعة الايطالية من الموسوعات الحديثة وقد جمعت موادها فى عهد الحكم الفاشى تحت اشراف الفيلسوف الايطـــالى جيوفانى جنتيله ٠

وكلما اتسع نطاق البحوث فى اللغة العربية ازداد الشعور بالحاجة الماسة الى موسوعة عربية جديدة على طراز موسوعة شامبر الانجليزية أو الموسوعة البريطانية ، يستعين بها الباحثون ويرجع اليهـا القراء والمثقفون ويستشيرونها فيما يعرض لهم من المشكلات العلمية والادبية والفنية ٠

ولا تقل حاجتنا الى معجم حديث عن حاجتنا الى الموسوعة العربية ، وعندنا معاجم مطولة مثل لسان العرب ، ومعاجم مختصرة مثل مختـــار الصحاح والمصباح المنير والمنجد وأســـاس البلاغـــة ، والمطولات قد تمل الباحث ، والمختصرات لا تروى الغلة ولا تفى بالغرض ، وأكثر المعـــاجم العربية ينقصها بيان أوجه اســـتعمال الكلمات ، وقد انفرد بهذه الميزة معجم أساس البلاغة ، ولكنه من ناحية أخرى لا يفسر الكلمات ولا يشرحها والذى ينقصنا هو معجم يجمع بين المزيتين فيفسر الكلمة ويشرحها ويوضح





وجوه استعمالها على طريقة المعاجم الانجليزية والفرنسية ، فليس يكفى أن تعرف معنى الكلمة ، ومعرفة وجوه استعمالها لاتقل أهمية عن معرفة معناها وأصلها ، وقد استدرك المعجم الوسيط الذى اشرف على اخراجه مجمع اللغة العربية هذا النقص الى حد لا بأس به ، والاضطلاع بعمل الموسوعة يقتضى تعاون العلماء والباحثين فى مختلف الاقطار العربية ٠

وقد قدر الاستاذ العالم أحمد قدامة حاجة قراء اللغة العربية الماسة الى موسوعة تاريخية جغرافية أثرية طبوغرافية وآنس من نفسه القدرة على النهوض بهذا العمل الضخم مع تقديره لصعوبته واعتباره مغامرة نرجو أن تكون مأمونة العواقب وأن يوفق فى اتمامها ، وقد صدر الجزء الاول ويشتمل على الحرف من أ الى خ فى سنة ١٩٦٥ ونرجو ان يعان وتيسر له الاسباب لاستكمال أقسام هذه الموسوعة النافعة ٠

وهو يقول فى تقديمه للموسوعة « ما وضعت هذا الكتاب حبا فى كسب أو سعيا وراء شهرة ، وانما تلبية للحاجة الماسة الى معجم تاريخى جغرافى أثرى طبوغرافى اعلامى ، يقدم للمواطنين معلومات موجزة عن بلادهم ، وتعريفا بالمعالم والاشخاص ٠ وشرحا لاصطلاحات وتعابير يسمعونها من أفواه الناس ، أو يطالعونها فى الكتب أو يرونها منقوشة على الأوابد والآثار ٠

ولعل العاملين فى ميادين صناعة القلم ـ من صحافة وتأليف واعلام ـ هم أكثر الناس شعورا بالحاجة الى مثل هذا المعجم لأنهم عرضة دائما لسماع أسماء مدن وقرى وأماكن وأشخاص يقفون أمامها حائرين فى رسمها وفى لفظها على الوجه الصحيح ، وغالبا ما يضطرهم فقد المرجع وضيق الوقت ومتطلبات السرعة الى التغاضى عن التدقيق والتحقيق ، فينشر الاسم فى الصحف أو يذاع على موجات الاثير مغلوطا فى رسمه أو فى لفظه ، ويتلقفه الجمهور ـ كما كتب أو أذيع ـ ويرسخ فى الاذهان ٠ ولا سبيل بعد ذلك الى اقتلاع جذوره أو تصحيحه على الاقل ، وكل من الكاتب والقارىء والمستمع معذور فى اشاعة خطأ ـ غير مقصود ـ لانه لم يجد فى متناول يده المرجع الذى يرشده الى الصواب ، بل هو اذا حاول ذلك لابد له من الغوص فى بحر عميق من البحوث الطويلة المهوشة والضرب فى صحراء قاحلة من الذيول والحواشى لا يهتدى فيها الى بصيص

من النور الا بشق النفس وفقد الصبر وضياع ساعات عديدة من الوقت الثمين فى عصر السرعة الذى نعيش فيه ، بينمـــا زميله العـــارف بلغـــة اجنبية حية سرعان ما يحصل على المعلومات التى ينشدها ـ موجزة او مفصلة ـ فى أقصر وقت ومن أقرب طريق ٠٠ اما الباحث العربى فلا يجد واحدا من أمثال هذه القواميس الحديثة ، وما عليه اذا أراد الكشف عن كلمة الا ان يتذرع بالصبر ، ويتيه بين آلاف الصفحات فى الكتب القديمة اذا توفرت له ، لينبش عن نتف ممزقة ، وسطور موزعة فى هذا الكتاب وذاك فيصل بعد جهد مرهق الى بعض بغيته أو يعود دونها خالى الوفاض محطم الاعصاب !

وهذا الواقع المؤلم الذى عانيته فى الصحافة وفى الاعمال الفكرية ـ كما عاناه ويعانيه غيرى ـ هو الذى حفزنى من القديم على السعى لايجاد مرجع ـ صغير أو كبير ـ يضم شتات ما فى المؤلفات العربية والاجنبية ـ القديمة والحديثة ـ من معلومات تتعلق ببلادنا ، ويقدمها للمواطن العربى منظمة مرتبة منسقة سهلة التناول » ٠

وقد انتظر الاستاذ قدامة طويلا لعل احدى المؤسسات العلميـــة تتولى هذا العمل وتحمل هذا العبء ، والحاجة اليه تزداد الحاحا ولم يجد بعد طول الانتظـــار بدا من ان يقوم به وهو يعرف خطره ويقدر عظيم تبعته ٠

وهو يقول فى تواضع جميل واعتراف مقبول يقدره العارفون «ولقد صبرت وصـــــابرت ، وتحملت وكافحت ـ ولا أقول أكثر من هذا ـ ولا أشكو ولا أعتب ، ولا انتقد ولا أتهم ، وانما أقول ان عزائى عن كل ما مر بى أن تم وضع الكتاب فى نحو الف وخمسمائة صفحة من القطع الكبير ـ ثلاثة أجزاء ٠

وهو يحدثنا ان وضع هذه الموسوعة استغرق ست سنوات كاملة حافلة بالمراجعات والغوص فى صفحات آلاف المراجع عربية وافرنجيـة مطبوعة ومخطوطة والصحف والمجلات والوثائق والنشرات ولا نزاع فى أن ما بذله المؤلف من جهد مشـــكور جدير بالتقدير وان موســـوعته حينما يتم طبعها ـ ونرجو له التوفيق فى ذلك ـ ستملأ فراغا نشـــعر جميعا بوجوده ٠

والعدد الثـــالث منمجلة « اللســـــان العربى » التى تصـــدر فى الرباط ويرأس تحريرها الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله حافل بالبحـــوث القيمة للاساتذة علال الفـــاسى وعبد الرحيم بدر وابراهيم الســـامرائى وعبد الحق فاضل وكمال حمدى وعبد الحميـــد ابراهيم ابراهيم وأديب الســـلاوى وغيرهم من البـــاحثين الجادين ، وتدور معظم بحوث المجلة حول مشكلات اللغة والأدب والتاريخ وبخاصـــة التاريخ الاســـلامى ، وهى بحوث جديرة بأن يطلع عليها ويفيد منها قراء اللغـــة العربية فى الأقطار العربية ٠

على أدهم

تجارب فى الذريات

عرض ونقد
محمود أبو زيد

● الناشر: مشروع الألف كتاب مع دار الفكر العربى ١٨٥ ص ١٤×٢٠ سم ●

مما لا شك فيه أن كتاب تجارب فى الذريات يسد فراغا كبيرا فى المكتبة العربية ·· فهو يتناول الحقائق العلمية من بدء اكتشاف الذرة الى انتاج النظائر المشعة ·· التى هى قمة من قمم استخدام الذرة لخدمة السلام ·· وذلك فى تسلسل منطقى بسيط لا يحس القارىء معه بملل أو بصعوبة المادة ·· بالرغم من أن علم الطبيعة النووية والذرية من أعقد العلوم الطبيعية·

ونحن ننتهز هذه الفرصة لنشكر الأستاذ الدكتور محمود مختار على مراجعته للكتاب والأستاذ الدكتور سيد رمضان هدارة على ترجمته الممتعة لهذا الكتاب وعلى دقته فى تعريب المصطلحات العلمية به ·· والمترجم والمراجع يعدان من أكبر علمائنا فى الطبيعة النووية والذرية ·· فهما من آباء هذا الجيل من العلماء الموجودين حاليا بالجامعات ومعاهد الأبحاث المختلفة ·· بالاضافة الى أن لهم مؤلفات ومترجمات كثيرة كانت حجر الزاوية فى المكتبة العربية بالنسبة لعلم الطبيعة ·

ويتناول الكتاب فى أولى صفحاته الحقائق البسيطة عن الشحنات الكهربية الأساسية ، وعن الاعتقاد السائد فى أن المادة جميعها تتكون من شحنات كهربية موجبة أو سالبة · ولقد دعم المؤلف هذه الحقيقة البسيطة التى يعتمد عليها كثير من علم الطبيعة النووية بتجارب معملية مبسطة ، بل ويمكن لأى شخص بقليل من الامكانيات أن يجرى هذه التجارب · ومن المعروف أن الشحنات السالبة ما هى الا الالكترونات ، أما الشحنات الموجبة فهى البروتونات · وحيث أن ذرة أى عنصر متعادلة من الناحية الكهربية ، فهى تحتوى على عدد متساو من الالكترونات والبروتونات وتتجمع البروتونات فى وسط الذرة فى تجمعات صغيرة تسمى النواة ، أما الالكترونات فهى تدور حول هذه النواة فى مدارات مختلفة · والقول بأن الذرة فراغ هو قول سليم الى حد ما من الناحية الشكلية ·· ويضرب المؤلف لذلك مثلا ·· فاذا تصورنا الذرة محطة سكة حديدية فان البروتون يكون فى حجم ذبابة تحوم داخلها ·

واذا توخينا الدقة فى تركيب ذرة الأيدروجين مثلا، نجدها تتكون من نواة تحتوى على بروتون واحد يدور حولها الكترون واحد أيضا · وهذا أبسط مثال لتركيب الذرة ، تأتى بعده بقية العناصر من تضاعف عدد البروتونات الموجودة فى النواة، والذى يتضاعف تبعا له عدد الالكترونات ،وهناك أيضا النيوترونات وهى متعادلة الشحنة وموجودة

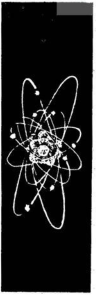
تأليف : ملسن بيلز وآخر
ترجمة : دكتور سيد رمضان هدارة
مراجعة : دكتور محمود مختار

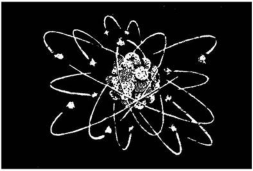
مع البروتونات فى داخل النواة . ومن غير المعقول أن تتحرك الالكترونات حول النواة حركة عشوائية ، والا ما كان هناك رابط بين الكترونات الذرة ونواتها . ولذلك فهى تدور حول النواة فى مدارات مرتبة الى حد ما ، مدار سعة معينة ، فمثلا يحتوى المدار الأول على الكترونين اثنين بينما يحتوى كل من الثانى والثالث على ثمانية والرابع ثمانية عشر وهكذا حسب قانون معين .

ولما كانت الشحنات المتماثلة متنافرة فانه من الضرورى وجود قوة تمسك البروتونات بعضها ببعض داخل النواة ، والا تفككت الذرة وما كان لها وجود . ولقد أجرى العلماء عديدا من التجارب لمعرفة ماهية هذه القوة ، ووجدوا أن وزن مكونات الذرة أكبر من وزن الذرة نفسها ، وهذا الفرق فى الوزن يتحول الى طاقة تعمل على تماسك الذرة، وكلما ازداد الفرق بين مجموع أوزان مكونات النواة وبين وزنها الحقيقى ازداد استقرار الذرة . ولكن ماذا يحدث لو أن الذرة غير مستقرة ؟.. والاجابة على هذا السؤال يسردها لنا الكتاب فى قصة ممتعة عن التجارب التى أجراها كل من هنرى بيكرل ومارى وبير كورى وأسفرت عن اكتشاف العناصر المشعة . وهى الدليل على عدم استقرار بعض الذرات . ولما كان كل شيء ينشد الاستقرار ، فان الذرة أيضا تنشد الاستقرار ، وتخرج من تلقاء نفسها أشعة ألفا أو بيتا وتتحول الى ذرة أخرى مستقرة ، وربما تتحول الى ذرة غير مستقرة التى بدورها تخرج الاشعاعات سالفة الذكر الى أن تتحول الى ذرة مستقرة . وعندما تتفتت ذرات العناصر المشعة ، تفقد بعضا من كتلتها والذرات ذاتها أثقل من البقايا التى تتخلف عن تفتتها ، والطاقة التى نحصل عليها تكون على حساب الكتلة ، وقد تكون هذه الطاقة غير ذات أهمية لولا الحقيقة أن الطاقة التى نحصل عليها من القدر الضئيل جدا من الكتلة هائلة جدا . فمثلا اذا أمكننا تحويل كل المادة الكائنة فى رطل فحم الى طاقة ، فاننا نحصل على طاقة تقدر بثلاثة ملايين ضعفا للطاقة التى نحصل عليها من احراق هذا الرطل .

وينقسم النشاط الاشعاعى الى نشاط اشعاعى طبيعى وآخر صناعى . والنوع الاول موجود فى الطبيعة ويبعث بأشعته من تلقاء نفسه ، مثل ذرات الراديوم التى تبعث بجسيمات ألفا (وجسيمات ألفا ما هى فى الواقع الا نوى ذرات







الهليوم) وجسيمات بيتا التى تحمل شحنة سالبة ، بالاضافة الى أشعة جاما ، وهى أشعة أكثر نفاذا من الاشعة السينية · وهى تحدث سرطانا فى الانسجة اذا ما سقطت عليها لفترة تحدد بشدة هذه الاشعة · ومن الغريب ان عنصر الراديوم ذو أهمية كبيرة فى الطب ، وذلك يرجع الى أشعة جاما التى تنبعث منه ، ولقد أثبت العلماء أنه بالرغم من أن أشعة جاما تسبب مرض السرطان ، الا أنه اذا ما سلطت باعتدال وتقنين على الانسجة المصابة بالسرطان فانها تشفيها فى بعض الاحيان ، ويكون الامل فى الشفاء أكبر اذا كانت الاصابة فى مراحلها الاولى ·

ومن غير المتوقع أن تقذف ذرات العناصر المشعة باشعاعاتها الى مالانهاية · ولكن هناك ما يسمى بنصف العمر ، أى الزمن الذى يمضى حتى تفقد العينة نصف كمية الاشعاع الصادر منها ولكل عنصر نصف عمر يختلف عن الآخر ويتراوح نصف العمر من قرون الى لحظة تقل عن الثانية بكثير · وبالاضافة الى النشاط الاشعاعى الطبيعى هناك النشاط الاشعاعى الصناعى، الذى ينتج من ضرب نوى العناصر بجسيمات ألفا ·· كما كان متبعا فى بدء اكتشاف هذا الاشعاع · ولقد تم تحويل مئات من العناصر الى عناصر أخرى فى الاعوام التى تلت هذا الاكتشاف · فنجح العالم أرنست رذرفورد عام ١٩١٩ فى تحويل النيتروجين الى أكسجين وذلك بضرب ذرة النيتروجين بجسيمات ألفا المنبعثة من الراديوم ، وأنتج ذرة أكسجين وبروتونا طليقا ·

وكما سبق أن ذكرنا فان القذائف التى كانت تستعمل فى بادىء الامر ·· كانت عبارة عن جسيمات الفا ولكن عندما أقيمت أجهزة المعجلات – تلك التى تكثف الجسيمات بأعداد كبيرة لتطلقها بسرعة خارقة – شاع بعد ذلك استخدام الديوترونات والبروتونات باعتبارها قذائف ممتازة فى تحقيق هذه الاغراض ، والجسيمات المنبعثة فى هذه الحالة من الاهداف التى تقذف بهذه القذائف تكون فى العادة بروتونات أو نيوترونات أو جسيمات ألفا · وعمل المعجلات هو زيادة سرعة القذائف ، ويختلف نوع المعجل باختلاف المواصفات التى نريدها فى القذائف ونوعها · والكتاب يشرح لنا تجارب فى غاية البساطة لتفهم طريقة عمل المعجلات وأنواعها ، اذ تعتمد المعجلات أساسا على زيادة سرعة الجسيمات المشحونة مثل الالكترونات أو البروتونات أو الديوترونات أو جسيمات ألفا ·· أما النيوترونات فلها جهاز آخر ·

وللحصول على نيوترونات فهناك ما يسمى بالمفاعلات أو الافران الذرية . ووقود المفاعل .

عبارة عن مادة قابلة للانشطار مخلوطة بمواد أخرى غير قابلة للانشطار • وبقذف النواة القابلة للانشطار بالنيوترون فانها تنفلق ، وتنطلق منها طاقة كبيرة بجانب انبعاث النيوترونات التي تصاحب الطاقة والتي تصطدم بنواة أخرى وتحدث فيها انشطارا آخر ، وهكذا نحصل على كمية كبيرة من الطاقة والنيوترونات معا • ولقد بني المفاعل الاول عام ١٩٤٢ على أرض تابعة لجامعة شيكاغو بأمريكا ، وكان عبارة عن كومة من الجرافيت واليورانيوم والرصاص والخرسانة تزن حوالي ١٤٠٠ طن • وكان الجرافيت على شكل قوالب بها ثقوب رصت فوق بعضها وملئت الثقوب بأكسيد اليورانيوم • ولكي يحدث الانشطار فهناك ما يسمى بالحجم الحرج ، أي الحجم الذي يبدأ عنده المفاعل في اطلاق الطاقة والنيوترونات • ولقد وصل المفاعل الاول الى حجمه الحرج عندما وضعت الطبقة الخمسون ، أما كيف نوقف هذا الانشطار الذي يحدث في المفاعل ، فمن المعروف أن بعض العناصر لها خاصية امتصاص النيوترونات مثل الكادميوم فبادخال قضبان من الكادميوم في قلب وقود المفاعل ، يمتص الكادميوم النيوترونات وبذلك يبطل عمل المفاعل ، ويمكننا التحكم في عدد النيوترونات الناتجة من التفاعل بزيادة أو قصر عمود الكادميوم داخل وقود المفاعل •

ولا شك أن المفاعلات الحالية بالرغم من أنها لا تختلف في الفكرة عن المفاعل الاول ، الا أن بها احتياطات أمان لعدم انفجار المفاعل أو تسرب النيوترونات من جميع أجزاء المفاعل ، فهناك فتحات هي التي يسمح فقط للنيوترونات بالخروج منها • ويعدد لنا الكتاب أنواعا كثيرة من المفاعلات مما يضيق المقام بذكرها •• ومن أهم أنواع المفاعلات ، المفاعل الولود ، أو المفاعل المنتج للوقود ، وفكرة هذا المفاعل تقوم على أساس خلط وقود قابل للانشطار مع وقود آخر غير قابل للانشطار ، ولكن الاخير يتحول الى وقود قابل للانشطار بعد امتصاصه نيوترونات من هذه التي تنتج في المفاعل • وبذلك ينتج وقود نووي ليحل محل الوقود الذي يستهلك في عملية الانشطار •

وبعد كل هذا الجهد المضني من العلماء والامكانيات التي استنفدت في التجارب لبناء وتطور المفاعلات ، وجب علينا أن نذكر فوائدها فبجانب استخدام النيوترونات المنبعثة في البحث الاكاديمي والتطبيقي فانه أمكن ايضا تصميم مفاعلات تسمى مفاعلات القوى ، وفيها تتحول الطاقة الناتجة من الانشطار الى طاقة كهربائية لاستخدامها في الاغراض السلمية • ومن أهم فوائد المفاعلات انتاج النظائر المشعة وذلك بادخال المواد المراد تحويلها الى نظائر مشعة داخل قلب المفاعل ، أو تعريضها للنيوترونات الخارجة من الفتحات الخاصة بذلك • وبامتصاص هذه المواد للنيوترونات تتحول الى نظائر مشعة يمكن الاستفادة منها في كثير من الاغراض السلمية ، منها على سبيل المثال لا الحصر ، تتبع مسار او امتصاص مادة معينة في جسم الانسان أو النبات وذلك بخلطها بنظير مشع والكشف عن مسار هذا النظير بالعدادات الخاصة بذلك ، كما أنها أيضا تستعمل في قياس سمك المواد مهما كانت رفيعة أو سميكة ، وذلك بقياس شدة الاشعاع المنبعث من النظير قبل وبعد مروره في المادة المراد قياس سمكها ، كما أنه أمكن استخدامها في الكشف عن التشققات الموجودة داخل المعادن • هذا بالاضافة الى استخداماتها التي لا حصر لها في الطب والزراعة والصناعة •

الآن وقد كشف لنا الكتاب عن أسرار النظائر المشعة والذرة والطاقة الكامنة بها ، وكيفية استخدامها في أغراض سلمية تعود على البشرية

بالرفاهية والنعيم • فلم يغفل المؤلف ذكر أسلحة الدمار التى اخترعها الانسان لتحطيم نفســـه ، وكلنا مازلنا نذكر مأساة هيروشيما وما حدث من تخريب بل محو لمعالم البشرية والتقدم • وتقوم فكرة القنبلة الذرية على نظرية الانشطار وتتكون أغلب الظن من قطعتين من المادة القابلة للانشطار بسرعة (حتى يجاوز وزن المجموعة الكتلة الحرجة التى أشرنا اليها من قبل فى اللحظة المراد احداث الانفجار عندها تماما) ويوضع كل من القطعتين فى طرفى أنبوبة ، وعند اســـقاط القنبلة وعلى ارتفاع معين تعمل اشارة كهربية على اطلاق شحنة متفجرة تدفع الكتلة العليا الى أســـفل الانبوبة بسرعة كبيرة ، وما أن تلصق الكتلتان بعضـهما ببعض حتى تصل المجمـــوعة الى الحجم الحرج ، وعنده يحدث الانفجـــار ، الذى يفوق انفجـــار ٢٠٠٠٠ طن من البارود• وتختلف القنبلة الذرية عن القنبلة الهيدروجينية ، فالانفجار فى الاولى ناتج عن انشطار الذرات ، بينما الانفجـــار فى الثانية ناتج عن اندماج الذرات • وتزداد الطاقة المتحــررة من الاندماج كلما خف وزن الذرات المنــدمجة ، وعلى ذلك تســـتخدم فى القنبلة الهيدروجينية الدتيريوم أو التريتيوم أو خليط من تلك الذرات • ويحــدث عند اندماج ذرتين من التريتيوم والدتيريوم تكوين ذرة هليوم بالاضافة الى نيوترون طليق مع انبعـــاث كمية هائلة من الطاقة • وأهم فرق بين القنبلة الهيدروجينيـــة والقنبلة الذرية ، هو أن الاولى يمكن زيادة حجمها أما الثانية فيجب أن يكون حجمها معينا وهو الحجم الحرج اللازم لاحداث الانشطار • ومن المعروف أن القنبـــلة الذرية تســـتعمل كزناد للقنبـلة الهيدروجينية وذلك لتوفير درجة الحرارة العالية اللازمة لاندماج ذرات القنبلة الهيدروجينية •ولقد قدرت درجة الحرارة فى قلب القنبلة الذرية بحوالى ٥٠ مليون درجة مئوية ، وهذا الارتفاع الرهيب فى درجات الحرارة هو من أكبر الـــكوارث التى تسببها القنبلة ، اذ أنها تبخر الصلب والخرسانة وتحرق كل جسم قابل للاحتراق كلية ، ونتيجة لهذا الارتفاع الرهيب فى درجات الحرارة تتولد درجة ضغط عال جدا ، اذ أن الهواء يســـخن ويتمدد تبعا لذلك • وتمتد هذه الموجة الى عدة أميال فتكتسح امامها كل شىء من مبان وأشجار ومعالم الانسانية بأكملها ، هذا علاوة على الكميات الهائلة من أشعة جاما والنيـــوترونات التى تؤثر على خلايا الجسم • وأكثر أجزاء الانســـان تأثرا بالاشعاعات هى نخاع العظام والعقد الليمفاوية والطحال واللوز ، وهى الاماكن التى تنتج وتختزن كرات الدم البيضاء التى تحمى الجسم من الاصابة بالامراض • ويمكن اسعاف المريض الذى يتعرض للاشعاعات بعمليات نقل دم وبلازما ، بجـــانب اعطائه كميات كبيرة من الحديد والفيتـــامينات والاحماض الامينية • ولكن فى حالة انفجار ذرى فان هذه الوسائل لاتجدى وذلك لشدة الاشعاعات المنبعثة •

ومما لا يدع مجالا للشك ، أن القنابل الذرية والهيدروجينيه وأســـلحة الدمار الاخرى مثل الغواصات الذرية أسلحة فتاكة رهيبة ، ويراود العالم أمل كبير فى أنها لا تســـتخدم فى محو البشرية وأن يوجه ذكاء الانسان الى اتجاه السلم والبحث عن مستوى معيشة أفضل ، كأن تستعمل هذه القوة الهائلة الكامنة فى الذرة فى تسيير البواخر التجارية والطائرات المدنية وادارة محطات الكهرباء لنشر الرفاهية والرخاء •

وأخيرا فهـــذا عرض سريع متواضع لكتاب تجارب فى الذريات ، وأهم ما امتاز به هذا الكتاب هو كثرة سرد التجارب البسيطة التى تســـاعد على فهم الموضوع والالمام الكامل بأبعاده••ولاشك أنه يفيد كثيرا القارىء ، وخصوصا اذا كان غير متخصص فى هذا الفرع من فروع العلم الكثيرة•

محمود أبو زيد



الإنسان روح لا جسد

تأليف : دكتور رؤوف عبيد

عرض ونقد
أحمد الشرباصي

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية ١٧×٢٤سم

●●●

هذا بحث ضخم ، استغرق أكثر من ستمائة صفحة من الحجم الكبير ، ولم يضعه عالم دينى ، ولا داعية روحى ، بل وضعه أستاذ قانون بكلية الحقوق فى جامعة عين شمس ، هو الدكتور رءوف عبيد ، والمؤلف نفسه يحس فى خاتمة بحثه بأن القراء من حقهم أن يستغربوا اقدام مثله على مثل هذا البحث ، ويرد المؤلف على هذا بأن ايمانه بالحقيقة الكبرى - حقيقة الروح - هو الذى دفعه الى المضى فى هذه السبيل ، معتقدا أن البحث فيه لا يخرج عن مجال الموضوعية العلمية الصرفة .

ومن الظواهر اللافتة للأنظار والافكار معا أن جمهرة المشتغلين بالبحوث الروحية على أوضاعها الحديثة من العلماء الطبيعيين - أو الماديين - وهذه الظاهرة تشمل داخل بلادنا وخارجها ، واذا كنا نشارك المؤلف ملاحظته عدم قيام معهد روحى فى بلادنا ، فانا نضف الى هذه الملاحظة أختا لها ، وهى أن علماء الدين - المنتظر منهم مزيد العناية بالتجارب الروحية والبحوث الروحية - لا يعطون هذه الناحية مايعطيها غيرهم من العناية والاهتمام !

وليس معنى هذا ان كاتب هذه السطور يمضى فى التسليم والموافقة والتصديق ، مع القائمين بهذه التجارب الى منتهى الشوط ، أو الى الحد

الذى يبلغه بعضهم مغاليا متوسعا فى الجزم بنتائج أو آراء أو أحكام مازالت تحتاج الى التثبت والانضاج ، بل هو يستحسن دائما أن ننتظر ونصبر ، وأن ندمن القراءة عن الروح وبحوثها والتجارب المتعلقة بها ، حتى تمضى المدة الكافية لتقعيد قاعدة ، أو اثبات فكرة ، أو تقرير حقيقة٠

ولعل هذه الخاطرة تذكرنا بالكلمة البليغة العميقة التى قالها أحد القدماء ، وهى : « الويل لمن يحاول أن يعلم الناس أكثر مما يستطيعون أن يتعلموا » ٠

ومؤلف الكتاب نفسه يعطينا شاهدا على ذلك، فهو يقرر فى فاتحة بحثه أنه لو قيل له قبل خمس عشرة سنة من تأليفه كتابه : ان الحياة بعد الموت حقيقة مقررة ، وان الاتصال بأرواح الموتى ممكن ، لرمى القائل بالتخريف فى عصر العلم والعرفان ٠ ولكن المؤلف مضى خلال هذه السنوات يبحث الموضوع على أساس انه دعوى مطروحة أمام محكمة العلم ، ثم انتهى الى اصدار الحكم ، وكان حكمه فى « صالح » المؤمنين بالروح ، والبعث ٠

ومن الواضح أن عنوان الكتاب : « الانسان روح لا جسد » يبدو غريبا ، اذ كان يستطيع أن يجعله مثلا : « الانسان بين الروح والجسد » ، أو « الانسان روح وجسد » ، أو « الانسان روح ثم جسد » ، أو ما أشبه ذلك من عناوين ، ولكنه أصر على عنوانه ، لانه يرى ان الانسان فى العلم الروحى روح فقط ، وان الجسد ما هو الا رداء بال يحبس الروح ، ويذلها الى حين ، واذا كان الشائع فى علم الارواح أن يقال : «الانسان روح لها جسد ، لا جسد له روح » ، فان المؤلف يرى ان الاقرب الى الصواب أن يقال : ان الانسان ـ وهو يمثل الذات الواعية الناطقة فينا ـ محض روح ، والجسد مظهر فقط ٠٠٠ وهكذا يعلل المؤلف لتسمية كتابه ٠

ومنذ مطالع البحث يواجهك الباحث بفكرة يجب أن تتدبرها وتقف أمامها متأملا ، وهى أن خلود الروح بدأ موضوعا فلسفيا فى الزمن القديم ، ثم تطور الى بحث علمى صرف فى أواسط القرن التاسع عشر، حيث ظهرت بواكيره فى ولاية نيويورك ، وان هذا الموضوع هو أشد الموضوعات خطورة فى نظر العالم والفيلسوف على السواء ٠

ويخبرنا المؤلف تحت شعار : « الناس أعداء ما جهلوا » انه قضى سنوات طوالا فى بحوث روحية ، بعد أن كان يظن ان الاتصال بين الاحياء والاموات وهم ، واذا هو يدرك انه كان مخطئا فى هذا الظن ، وينوه بالذين كانوا روادا فى الكشوف العلمية ، وقابلهم الجهلاء بالسخرية والاستنكار ، ومن هؤلاء الرواد : سقراط ، وجاليليو ، وباستير ، ثم يذكر عقب ذلك الرواد الاوائل فى البحوث الروحية ٠

ويريك المؤلف كيف كانت المحاولات الاولى فى هذا المجال يسيرة خفيفة، ثم أخذت تتطور وتتعمق وتتسع ، وانك لتدهش معه حين يبين لك ان كثيرا من أفاضل علماء الفيزياء والرياضة والعلوم المادية هم أنفسهم أفضل المقتنعين بعالم الروح ، وأقواهم حديثا عنه ، اذ حطموا فى عقولهم عالم المادة الصلبة بنظرياتهم ، كيما يقيموا بطريقة علمية صرفة أسسا رياضية لعالم الروح ، وكان ذلك بعد أن طال اعتزازهم بالمادة الصلبة ، واعتقادهم أنها هى كل شىء ٠

ثم هو يبين لك الصراع أو الخلاف بين الباحثين فى الارواح وعلماء المادة ، أو بين علماء النفس والمفكرين تحت لواء العقيدة ، ثم انتهى هؤلاء المعارضون ـ أو كثير منهم بتعبير أدق ـ الى البحث التجريبى فى الروح ، بدافع من الرغبة فى الوصول الى الحقيقة العلمية ، مستخدمين فى ذلك وسائل البحث اللازمة ، من ملاحظة ، وفحص ، ونقد ، وتحليل ، واستقراء ، واستنتاج ، مع الحيطة والحذر والتحفظ ، وانتهوا الى الايمان بالقول المأثور الذى يقرر أن النفوس الضعيفة تؤمن بالمجهول ايمانا أعمى ، وان النفوس القوية تنكر وجوده ، أما النفوس العظيمة فهى التى تقف من المجهول موقف البحث الجدى الذى ينهض على التحليل والتمحيص ٠

وثمة أمر له أهميته هو التقاء البحث العلمى فى الارواح بالمعتقدات الدينية ، على الرغم من الخلاف الذى نشب فى أول الامر بين علماء الروح وعلماء الدين ، فان البحوث فى الارواح تريد أن تؤكد الحقيقة الكبرى التى يعنى بها الدين، وهى الايمان بحياة أخرى بعد الموت ، وان هذه الحياة قائمة على شريعة الثواب والعقاب ، كما ان البحث فى الارواح يدعم الايمان بالله ، ويقاوم نزعة الالحاد التى اجتاحت الفكر منذ قرنين ٠

ولقد عقد المؤلف بابه الاول عن الروح عند القدماء ، وقرر أن الايمان بالروح قديم قدم الانسان، واستعرض موضوع الروح عند الفراعنة والهندوس والاغريق والرومان ، وفلاسفة المسيحية وفلاسفة الاسلام ، ثم استعرض هذا الموضوع فى عصرنا الحديث ٠

وأتعجل ابداء ملاحظة هنا ، وهى ان المؤلف قد تابع المألوف فى الكتابات الروحية المعاصرة ، فأكثر الاستشهاد بأقوال الغربيين وتجاربهم ونتائجهم وتوجيهاتهم ، وقد يكون له عذر ناشىء عن عناية الغربيين بالتجارب الروحية ، وسبقهم فى العصور الاخيرة الى الاكثار من هذه التجارب، حتى أقاموا لها المعاهد والمعامل والاندية ، وتخصص فيها كثيرون منهم ٠ ولم ينشأ حتى الآن معهد روحى واحد فى بلادنا ٠

ومع ذلك تمنيت لو اتسع نطاق الاستشهاد والاستناد الى التراث الواسع الذى خلفه السابقون من سلفنا فى المجتمعين العربى والاسلامى ، ثم مجتمعنا الشرقى الواسع ، من بحوث تدور حول الروح وظواهرها ، وفيما كتبه أمثال ابن سينا والغزالى وابن القيم زاد كبير ضخم ٠

وعلى سبيل المثال أذكر ان الباحث تعرض لتجسد الروح واستطاعتها أن تظهر بشكل مادى معين ، وكان من الممكن له أن يتعرض فى مثل هذا المجال لما يرويه أكثر من مؤرخ عن الامام أحمد الرفاعي الصوفي المشهور ، من انه كان جالسا سنة خمس وخمسين وخمسمائة للهجرة فى مجلس يضم جمعا من صفوة القوم ، وفجأة قام الشيخ الرفاعي وكشف رأسه وقال :



الله أكبر ، ظهر الحق وبان الصدق ، نوديت من الحضرة العلية أن يا أحمد قم وزر بيت الله الحرام ، وزر النبى عليه الصلاة والسلام ، فان هناك دعوة من الرسول يوصلها اليك ٠

ثم توجه الرفاعى الى الحج ، ثم زار قبر الرسول ٠ ووقف أمامه فى حالة روحانية خاصة، وهتف يقول :

في حالة البعد روحى كنت أرسلها
تقبل الارض عنى وهى نائبتى
وهذه دولة الأشباح قد حضرت
فامدد يمينك كى تحظى بها شفتى

فرأى الرفاعى يد الرسول ممتدة اليه فصافحها وقبلها !٠

وليس من هدفى هنا أن أحكم على الحادثة بالقطع أو المنع ، ولكن الذى لا شك فيه ان هناك تشابها باديا بين حادثة الرفاعى وما يقال عن حوادث تجسد الارواح ، مع ملاحظة الفروق التى لا بد منها بين الروح العادية وروح النبى عليه الصلاة والسلام بطبيعة الحال ٠

ولقد تحدث الكتاب عن العلم « الروحى الحديث » ، وارتأى أن علم الارواح غير علم النفس ، وان من الخطأ أن يستعمل تعبير «استحضار الارواح» فى مقابلة الكلمة الانجليزية « اسبرتيوالزم » Spiritualism ٠ فان نقطة «استحضار» قد تفيد معنى القدرة على الاحضار، أو التحكم فى احضار الروح ، مع ان الروح لا تؤمر ، ودور « الوسيط » ليس الا دور استسلام لقوة غير منظورة ، تريد أن تظهر نفسها بصورة ما ، وربما لاتريد ، ودور الوسيط سلبى بحت ، ويضيف المؤلف قوله :

« بل حتى تسمية البحث فى الارواح بوجه عام ، بانه العلم الروحى غير دقيقة أيضا برغم شيوعها ٠ لانه لا ينصب مباشرة على دراسة الروح ، بمعنى الشعلة القدسية التى تهب الحياة للانسان هنا وهناك ٠ فهذه لا يعرف أحد عنها شيئا ، ولم يدع أى عالم انه قدر أن يعرف حقيقتها أو كنهها » ٠

وهنا يعلق المؤلف على آخر هذا النص بقوله: « وهذه الحقيقة تعطى تفسيرا كافيا فى نظر الباحثين فى الروح للآية : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ٠

ثم يقول المؤلف ان هذا العلم ينصب على دراسة الجسد الأثيرى المتداخل فى الجسد المادى كتداخل



الماء فى العود الرطب ، ويستحسن لذلك أن يسمى العلم باسم « علم دراسة الجسد الأثيرى» أو العالم الأثيرى ٠

وينعى المؤلف على مجتمعه ان الحركة الروحية فيه لا زالت تعانى الجمود والتخلف الذى لا يقل مداه عن قرن كامل من الزمان يكاد يمثل كل تاريخ هذه الحركة حتى الآن ، على حين عنى كثير من الباحثين فى الغرب بهذه البحوث ، ويبدو الأسى على الباحث حين يقول : « أليس الشرق هو مهبط الرسالات السماوية التى تهدف الى النهوض بالروح لا بالمادة ، عن طريق تعزيز عاطفة المؤمن وايمانه وضميره ، فضلا عن تقريب أخطر حقائق الكون الى فهمه ومعرفته ؟ فهل أصبحنا أكثر تعلقا بالمادة ، وعزوفا عن الروح ، ممن تعودنا أن نقول انهم بناة حضارة مادية ، ودعاة تشكك والحاد » ؟ ٠ ثم يستشهد بعبارة طويلة للشيخ طنطاوى جوهرى منها قوله : «نحن أحق بهذا العلم من الغربيين» ٠

وينقل المؤلف عبارة عن « جيمس آرثر » يقول فيها : « ان الموت ـ كما أنبئت ـ سهل وبسيط، كالذهاب الى النوم والتيقظ » الخ ٠ وكان الموقف هنا صالحا للمقارنة بين هذا الكلام وما قاله أبو العلاء المعرى فى قصيدته الرثائية المشهورة التى مطلعها : « غير مجد فى ملتى واعتقادى » ، فقد سبق أبو العلاء بمئات السنين فى هذه القصيدة الى مثل ما ذكره جيمس آرثر ، ان لم يكن أوسع وأعمق مما ذكره ٠

وكذلك ينقل عن « أوليفرلودج » كلاما عن الاموات يقرر فيه انهم ليسوا بأموات ، بل انهم يعودون الى الحياة بسرعة ، وهم لايعدون أنفسهم أمواتا ، بل أحياء حياتهم موفورة (ص ١٨) ٠ وكان الموقف أيضا صالحا للمقارنة بين هذا وبين ما سبق اليه القرآن المجيد الذى يعلو ولا يعلى عليه ، وهو الذى يقول عن حياة الابرار الشهداء : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل

الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله » • ويقول عن حياة الاشرار المعذبين : « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » أى انهم معذبون عقب موتهم حتى تقوم القيامة فيزداد لهم العذاب ، ولا تأثير للعذاب اذا لم تكن لهم حياة •

ثم يستعرض المؤلف سيرة طائفة من الوسطاء الروحيين البارزين مثل «سويدنبرج» السويدى، و «دافيز» الامريكى ، و «فلورنس» الانجليزى ، وغيرهم ، ويقرر أن موضوع الاتصال الروحى يحتاج الى صبر ومتابعة • فلو فرضنا أن أحد الاشخاص حضر احدى الجلسات الروحية ولم يسترح الى أمر فيها ، فعليه أن يتابع الدراسة ، فان المتابعة تجلو له الخفاء ، ثم يفند مزاعم القائلين بوجود تدليس فى الوساطة الروحية ، ومع روح الاخلاص البادية فى هذا التفنيد من المؤلف ، نجد آخرين يؤكدون وجود نوع من التدليس فى بعض حالات هذه الوساطة ، ومازال الفريقان على الطريق يسيران ... والحقيقة بنت البحث كما قال القدماء •

ويأتى فى الكتاب فصل عن دلالة الظواهر البادية فى الوساطة الروحية على دوام الحياة بعد الموت ، وفيه استشهاد بأقوال علماء كبار ، ومنهم من كان ملحدا ثم اهتدى عن طريق الدراسات الروحية ، ومنهم أوليفرلودج الذى أثبت أنخلود الانسان حقيقة (ص ١٠٢–١٠٨)•

ويذكر المؤلف ان البحث فى الروح أصبح علميا جامعيا فى أمريكة وبريطانية وفرنسة وألمانية ، وكأنه أراد أن يؤكد ذلك فخصص من كتابه قسما فى عدة أبواب استغرق نحو مائة صفحة ، لاستعراض أسماء الباحثين العلميين فى هذا المجال ، وأسماء المراجع التى بحثت فى العلم الروحى الحديث ، مبتدئا بأمريكة ثم انجلترة ثم فرنسة ، وبعد الفيض الغزير المنهمر من الاستشهاد بأسماء ومراجع أجنبية نراه يستشهد برأى للأستاذ محمد فريد وجدى فى كتابه « على أطلال المذهب المادى » ، وكذلك يذكر بعض الاسماء والمراجع فى اللغة العربية ، فيذكر أحمد فهمى أبو الخير ومؤلفاته ومجلته أكثر من مرة ، ويعتمد فى النقل كثيرا على كتاباته ، ويذكر طنطاوى جوهرى وكتاباته الروحية ، ويذكر الدكتور على عبد الجليل راضى وبحوثه ••• الخ •

وما دام اسم الاستاذ أحمد فهمى أبو الخير قد جاء فى ثنايا الحديث ، فقد يكون من المناسب أن ألاحظ ان المؤلف توسع توسعا ملحوظا فى النقل عن كتب الاستاذ أبو الخير ، ومجلته « عالم الروح » ، فهناك عشرات من الصفحات نقلها المؤلف عن هذه المراجع ، وان كان لم يدلس على قارئه عند النقل ، فقد كان ينص دائما على المصدر • ويلاحظ ان هذا النقل قد بدا بصورة واسعة جدا حين بدأ المؤلف ينقل قصائد شعرية قيل انها منقولة عن روح شوقى أمير الشعراء ، بطريق وسيطة هى سيدة ليست بأديبة ولا شاعرة •

وفى رأيى ان هذا الموضوع يحتاج الى بحث من النقاد والشعراء والادباء ، لان علماء الروح يقولون ان هذه القصائد تشبه شعر شوقى من وجوه كثيرة ، وتبقى بعد هذا كلمة الخبراء فى شعر شوقى من أمثال الدكتور شوقى ضيف ، والدكتور أحمد الحوفى ، والدكتور محمد صبرى، وغيرهم ، فليت هؤلاء الخبراء – أو أحدهم على الاقل – يبحث لنا هذه الناحية ليقوم هذه القصائد المنسوبة الى شوقى رحمه الله ، خاصة وان المؤلف قد أنبأنا بأن هناك من هذا الشعر ما يملأ ديوانا كاملا •

وكذلك تحدث المؤلف عما قد يعرض خلال الاتصال الروحى من ألوان الشعب ، وانتقل الى تقديم الدلائل على وجود الجسد الأثيرى ، ثم الى الحديث عن تداخل عالم الروح فى عالم المادة ، وذهب الى أن البحث الروحى الحديث علم لا عقيدة ، ثم الى الحديث فى أمور كثيرة تتعلق بموضوعه الواسع الارجاء •

ان الكتاب كما ذكرت فى صدر حديثى سفر ضخم، وقد ناءت همتى عن استقصائه واستكمال الحكم على أجزائه ، ولكنه – مهما يكن أمر الحكم له أو عليه – مجهود علمى كبير ، يتسع نطاقه لارضاء نزعة الباحث عن أمور الروح ، وينتقل به خطوة نحو غد مأمول ، نستطيع فيه أن نقرر حقائق علمية ثابتة عن هذا الجانب الروحى الذى لا زال الكثير من مسائله بعيدا عن الانظار ، أو محيرا للأفكار ، والمهم هو أن لا نضيق بالبحث ، وألا نتعجل الحكم بالاثبات المطلق ، أو الانكار الجازم ، وان مع اليوم غدا ، فصبر جميل •

أحمد الشرباصى

طبقات الفقهاء الشافعية

تأليف

أبو عاصم محمد بن أحمد العبادى

لم يحـظ رجال مذهب من مذاهب الفقه الاسلامى ما حظى رجال المذهب الشافعى ، من التأريخ لحياتهم والاحتفال بانتاجهم ، وتدوين مسائلهم وفتاواهم . وما ذلك الا لأن رجال المذهب الشافعى انتشروا فى الآفاق وشغلوا الناس حين بسطوا سلطانهم على كل فروع الثقافة العربية ، درسا وتمثلا وتصنيفا . فرأينا منهم المحدثين والحفاظ والمفسرين والصوفية والمؤرخين والأدباء واللغويين والمتكلمين والفلاسفة وأمامنا أبو بكر البيهقى ، وابن عساكر ، وابن حجر العسقلانى ، وابن كثير ، وأبو القاسم القشيرى ، وأبنا الأثير ، مجد الدين صاحب « النهاية » وعز الدين صاحب « الكامل » والجرجانى صاحب « الوساطة » ، وأبو منصور الازهرى ، والفخر الرازى ووالده ، وامام الحرمين الجوينى ووالده ، وأبو حامد الغزالى. الى آخر هذه السلسلة التى جلت وجه الثقافة الاسلامية ، والتى ازدانت بانتاجها المكتبة العربية .

وانطلاقا من التأليف فى مناقب الامام محمد ابن ادريس الشافعى صاحب المذهب ، توالت المصنفات فى تاريخ أتباعه وحملة مذهبه (انظر كشف الظنون ، ص ١١٠١)

وعلى وفرة هذه المصنفات لم يظهر منها مطبوعا سوى « طبقات الفقهاء » لأبى اسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، و « طبقات »

تحقيق : غوستاف فيتستام ، ليدن

عرض ونقد

محمود محمد الطناحي

ابن هداية الله ، المتوفى سنة ١٠١٤ هـ ، ثم معلمة ابن السبكى العظيمة «طبقات الشافعية الكبرى»

واليوم يظهر هذا النص المبكر فى تراجم الشافعية ، لأبى عاصم العبادى ، محمد بن أحمد ابن عبد الله بن عباد الهروى القاضى .

ولد ابو عاصم سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. يقول عنه ابن السبكى : «كان اماما جليلا حافظا للمذهب ، بحرا يتدفق بالعلم ، وكان معروفا بغموض العبارة وتعويص الكلام ، ضنة منه بالعلم ، وحبا لاستعمال الاذهان الثاقبة فيه ».

وقد تنقل أبو عاصم فى البلاد ، ولقى المشايخ، وتلمذ لأفاضل عصره ، فأخذ عن القاضى أبى منصور محمد بن محمد الأزدى ، بهراة ، وقد توفى ابن السبكى سنة ٧٧١ هـ

والقاضى ابى عمر البسطامى ، والاستاذ ابى طاهر الزيادى ، وابى اسحاق الاسفراينى ، بنيسابور . وصنف كتبا نافعة ، منها : « الزيادات » ، و « زيادات الزيادات » ، و « المبسوط » ، و « الهادى الى مذهب العلماء» و « أدب القضاء » ، و « الرد على القاضى السمعانى » . وبعد حياة زاخرة بالعلم والتصنيف انتقل الى رحمة ربه ، فى شوال سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، عن ثلاث وثمانين سنة .

وكتاب أبى عاصم هذا « طبقات الفقهاء » أحد كتب خمسة فى تراجم الشافعية ظهرت فى القرن الخامس الهجرى . فقد الف ابو حفص عمر بن على المطوعى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ كتابا

سماه « المذهب فى ذكر شيوخ المذهب » . ثم الف القاضى ابو الطيب الطبرى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ مختصرا ذكر فيه مولد الشافعى رضى الله عنه . وعد فى آخره جماعة من الاصحاب . كما يقول ابن السبكى .

ثم الف شيخ الاسلام ابو اسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ كتاب « طبقات الفقهاء » وفى آخر القرن الف الحافظ ابو محمد عبد الله ابن يوسف الجرجانى المتوفى سنة ٤٨٩ هـ كتابه « الطبقات » . ويصف ابن السبكى كتاب ابى عاصم هذا فيقول : « جمع فيه غرائب وفوائد، الا إنه اختصر فى التراجم جدا . وربما ذكر اسم الرجل او موضع الشهرة منه ، ولم يزد » .

وقد اسدى الاستاذ المستشرق الى التراث العربى يدا جليلة بابراز هذا النص واخراجه الى النور . لكنه على عادة كثير من المستشرقين المشتغلين بتحقيق النصوص العربية قدم النص مجردا من أى شرح أو توثيق ، الا ما يكون من ذكر فروق النسخ .

وسواء اكان الباعث على هذه الطريقة المنهجية أو القصور فستظل هذه النصوص التى تخرج على هذا النحو فى حاجة الى اخراج جديد ، يجلوها ويربطها بما قبلها وبما بعدها فى خط التراث العربى المتداخل المتشابك . وستظل هذه النصوص ايضا فى حاجة الى عين عربية بصيرة بمجرى السياق عليمة بمواقع الكلام .

واذا كان من المجمع عليه أن أوفى عمل فى هذا الفن ــ فن تراجم الشافعية ــ هو موسوعة ابن السبكى العظيمة « طبقات الشافعية الكبرى» فان اى عمل فى هذا المجال ينبغى أن يراجع على هذه الموسوعة الكبرى ، وبخاصة أن ابن السبكى قد افرغ فى كتابه كل الكتب التى صنفت، قبله فى هذا الفن . فهو جهد حقيق بأن يرجع اليه ويستفاد منه .

ويبدو أن الاستاذ المحقق لم يفد من عمل ابن السبكى ، ولو فعل لأراح واستراح من هذه المظاهرة الصاخبة التى زحم بها حواشى الكتاب، ن ذكر فروق النسخ فيما لا طائل تحته ولا غناء فيه . فقد تكثر الاستاذ المحقق من ذكر هذه الفروق ، بحيث اشتملت بعض الصفحات على عشرين تعليقا ، معظمها يمكن الاستغناء عنه .

وليس هناك داع لاثقال النص بالفروق الهينة ، او التى تكون واضحة الخطأ ، نتيجة لأوهام النساخ أو جهلهم ، ولا يذكر من الفروق الا ما كان له وجه يخدم النص . والمسألة ليست استعراض عضلات ، كما يقال فى هذ الأيام . وهذا مثال واحد . فى صفحة ٦١ هامش ٧ « قال آبو داود السجستانى » يضع المحقق رقما فوق « أبو » ليقول فى الهامش : فى ت : «أتو» !

ولا شك ان هناك جهدا صامتا للمحقق لايظهر فى التعليقات . فلن يضير المحقق أن تكون تعليقاته قليلة . وهذه حقيقة يعرفها كل من ابتلى بتحقيق النصوص .

وملاحظاتى العامة على عمل هذا المستشرق انه لم يضبط النصوص القرآنية الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وفى هذا ما فيه . كما اهمل ضبط النسب : كالبويطى والدغولى والقراب ، والسجزى ، والتبوذكى . مع أن الأمر فيها هين . فكان حسبه أن ينظر فى « اللباب » لعز الدين ابن الاثير ، و «المشتبه» للذهبى ، و « معجم البلدان » لياقوت ، بل كان يكفيه « القاموس المحيط » وهو مرجع لا نظن مكتبة تخلو منه . والعجيب حقا أن المحقق فى صفحة ٦٣ سطر ٤ ضبط « المرور وذى » فكيف حظى أبو حامد وحده بهذا الاهتمام ؟ وهذا من علامات اضطراب المنهج عند المحقق .

ولم يضبط المحقق الالفاظ الغريبة التى امتلأ بها النص ، مثل « النغم والوغم » صفحة ٣٦ سطر ٥ وكذلك كلمة «جدآد» فى الصفحة نفسها سطر ١٣ .

ولم يراع المحقق علامات الترقيم ، فاضطرب السياق فى كثير من الاحيان .

وقد اقتطفت هذه الملاحظات لتدل على غيرها !

صفحة ٢ سطر ٩ « ومحمد بن صباح » شدد الباء فى « صباح » والصواب تخفيها .

وقد تكرر هذا الخطأ فى ص ٢٣ س ٥ ، وفى ص ٧٨ س ٤ .

ص ١٠ س ٩ قال العبادى فى ترجمة المزنى : « صنف المنثور » وفيه قال فى رجل ظاهر الحرية له أولاد أحرار فى الظاهر أقر بالرق لآخر فقبله ان أولاده أحرار وتجب نفقتهم على

العبد فى كسبه لا يأخذ السيد من كسبه الا ما يفضل من نفقتهم » .

جعل المحقق جملة « له اولاد احرار » مقول القول . ووضع قبلها نقطتين دليلا على ذلك . وهو خطأ . والصواب أن مقول القول هو قوله : « ان أولاده أحرار ... » .

ص ١١ س ٦ لم يضبط المحقق كلمة «السلم» وهو اصطلاح فقهى ، يجب أن يضبط بفتح السين واللام . وهو مثل السلف وزنا ومعنى . قاله فى المصباح المنير . والعجيب أن المحقق حين يضبط لا يأتى ضبطه دقيقا . ففى الصفحة ذاتها س ٧ « خبز حوارى » ضبطها بضم الحاء وفتح الراء فقط . وحقها أن تكون بضم الحاء وشد الواو وفتح الراء . وهو الدقيق الأبيض .

ص ١٢ هامش أ يقول المحقق : « هذه الكلمتان مكتوبة فى هامش أ » وهو أثر من آثار العجمة . وكان يجب على المحقق أن يستعين بأحد أبناء العربية فى تحرير التعليقات وفى قراءة النص ، كما يفعل كثير من المستشرقين .

ص ١٣ س ١١ ، ١٢ « اذا ترك أهل بلد طلب العلم رأيت الحاكم أن يخبرهم عليه » .

والصواب « يجبرهم » بالجيم ، وليس بالخاء المعجمة .

ص ١٤ س ١ « أما الفرض فغسل اليدين وقصعة والسكين والمغرفة » والصواب « والقصعة » كما ورد فى طبقات ابن السبكى فى ترجمة الربيع المرادى . والمحقق كلف بحذف « ال » التعريف ستأتى له أمثلة كثيرة .

ص ١٥ س ١٠ ذكر العبادى فى ترجمة الامام احمد بن حنبل انه روى عن الامام الشافعى « أن السيد يلاعن أمته » وقد جاءت هذه العبارة فى طبقات ابن السبكى ، فى ترجمة الامام أحمد « يلاعن عن أمته » والذين تمرسوا بقراءة المخطوطات يعرفون أن تجاور كلمتين كما فى هذا المثال قد يكون أصيلا وقد يكون زيادة جرى بها قلم الناسخ بتأثير الكلمة الاولى . فكان ينبغى على المحقق أن يلتفت الى هذه الزيادة .

ص ١٧ س ١ مثال لاهمال الترقيم وعدم فصل النصوص . « سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى الفراء ، فقال : أنقاها الدباغ وكانت الصحابة رضى الله عنهم ... الخ .. وواضح أن قول الرسول عليه الصلاة والسلام ينتهى عند كلمة « الدباغ » .

وفى الصفحة نفسها س ٢ « وحكى الربيع المرادى عن الشافعى رحمه الله انه قال : آلات الرئاسة خمسة : صدق اللهجة ،وكتمان السر ، والوفاء بالعهد ، وابتذال النصيحة ، واداء الامانة » .

ذكر العبادى هذه الحكاية أثناء ترجمة الربيع الجيزى ، ولا علاقة لها بترجمته ، اذ انها سبقت فى ترجمة الربيع المرادى ص ١٤ . والربيع المرادى هو الذى يتوقع منه الحكاية عن الشافعى ، فهو كما يقول ابن السبكى : « صاحب الشافعى وراوية كتبه ، والثقة الثبت فيما يرويه . وقد اتصل بخدمة الشافعى وحمل عنه الكثير وحدث عنه به »

فى حين لم يكن للربيع الجيزى من الامام الشافعى سوى الرواية عنه فقط . ويلاحظ أيضا أن النص فى ترجمة الربيع المرادى بدا مبتورا هكذا : « الرئاسة خمسة » . وهنا يقول : «وابتذال النصيحة » وهناك : « وبذل النصيحة » وهو الصواب ، فان الابتذال ضد الصيانة . كما يقول صاحب القاموس .

وكل هذا يدل على أن المحقق بمعزل عن النص . والأشتغال بتحقيق النصوص يقتضى المعايشة الكاملة للنص المحقق ، بحيث يكون المحقق مالكا لزمام عمله ، مفتح العينين لكل خبر وحكاية .

ص ٢٢ س ١٣ « وفيه قول آخر انه فيها من غير قطع » والاولى ان توضع كلمة « يدخل » قبل « فيها » كما فى النسخ الثلاث التى أشار اليها المحقق فى الهامش . والضمير يرجع الى الصلاة .

ص ٢٤ س ٥ « هـذا لا نعرف » الاولى قراءة النسخ الثلاث التى بالهامش « لا نعرف هذا » و يقرأ ما فى الصلب « لا يعرف » بالبناء للمجهول . ويجب ان يتخذ المحقق موقفا تجاه أختلاف النسخ ، والا يكون عبدا للاصل اذا كان اضح الخطأ .

وفى الصفحة نفسها س ١٠ « أبو طيب » والصواب « أبو الطيب » وانظر ماكتبته عن ظاهرة حذف « ال » التى تكررت عند المحقق ص ١٤ س ١

ص ٢٦ س ١١ « ومن فتاويه ان الصبى اذا اسلم باسلام احد أبويه » رفع «أحد» والصواب جره بالاضافة .

ص ٢٩ س « عن النبى صلى الله عليه وسلم: اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر » صوابه « باللذين » كما هى قراءة النسخة ت . ولا يضير هذه النسخة أن تنفرد بالصواب . وكأن المحقق خدع بأن سائر النسخ تخالفها .

وفى الصفحة نفسها س ١٤ « عمرو بن سواد المسرحى » وفى بعض النسخ « التنوخى » وانصافا للمحقق أقول ان ما أثبته هو الصواب، كما فى اللباب ٥٣٩/١ ، والمشتبه ٣٥٦ . ولكن من حق القارىء عليه أن يعرف من أين جاء بهذا الصواب ، حتى رفع عنه الشك ، ويريحه من عناء البحث والتقصى .

ص ٣٣ س ١٤ « فدل انه يستحق كمال الدرجات بكمال الايمان ونقصانه ينقص الدرجات»يجب أن توضع فاصلة بعد «الايمان» وهذا مثال لاهمال المحقق علامات الترقيم .

ص ٣٥ س ٩ قال العبادى : « ومنهم ابراهيم ابن عبد الله المحبر (وشدد الباء) من أصحاب مالك رحمه الله . روى الحرث بن سريح عنه

قال للشافعى رحمه الله : لم ار هاشميا يفضل ابا بكر على على رضى الله عنهما سواك ، فقال : أمير المؤمنين على ابن عمى وابن خالتى وانا من بنى عبد مناف وانا من بنى عبد الدار ولو كان فيه مكرمة لعلى لكنت أولى بها منك » وفى هذا النص عدة أخطاء .

أولا : « المحبر » خطأ . صوابه « الحجبى » كما جاء فى طبقات ابن السبكى فى ترجمة الحارث بن سريج . وساق ابن السبكى هذه الحكاية (انظر الطبقات ١١٣/٢ ، ١٧٩ ، الطبعة الجديدة)

ثانيا : « بن سريح » بالحاء المهملة خطأ . وصوابه « سريج » بالجيم المعجمة . كما فى طبقات ابن السبكى ، وكما فى المشتبه للذهبى ص ٣٩٥ . وهو حجة فى هذا الشأن ، لأنه يضبط بالعبارة .

ثالثا : « وانا من بنى عبد الدار » خطأ . صوابه « وانت » كما جاء فى طبقات ابن السبكى وهذا يؤيد كون « المحبر » خطأ ، وأن الصواب «الحجبى » كما قدمت . فقد جاء فى اللباب لابن الاثير ، عند الكلام على نسبة « الحجبى » ٢٨٠/١ : « هذه النسبة الى حجابة بيت الله الحرم . وهم جماعة من عبد الدار » .

ص ٣٩ س ٢ « أبو طاهر أحمد بن عمر ابن سرح » خطأ . والصواب : « أبو الطاهر ... ابن السرح » كما جاء فى ترجمته فى تذكرة الحفاظ ٧٩/٢ ، تهذيب التهذيب ٦٤/١ ، الجمع بين رجال الصحيحين ١٤/١ ، شذرات الذهب ١٢٠/٢ ، طبقات ابن السبكى ٢٦/٢ (الطبعة الجديدة) ، العبر ٤٥٥/١ . وحذف « ال » وان كان جائزا فى الاسماء والكنى ، الا ان تكرره وشيوعه فى هذا الكتاب (انظر ما كتبته عن ص ١٤ س ١ و ص ٢٤ س ١٠) مما يجعلنى أكاد أجزم بأنه أثر من آثار العجمة لدى بعض المستشرقين الذين يصعب عليهم نطق ما فيه « ال » وسيأتى فى ص ٩١ س ١ « ابن نحاس القاضى » بدون « ال » . وكذلك فى ص ٩ من المقدمة الاجنبية ذكر كتاب العبادى المسمى « الهادى الى مذهب العلماء » ذكره هكذا « هادى الى مذهب العلماء » ولو كان اسم الكتاب فى الحقيقة بدون « ال » لكتب : «هاد» بحذف الياء ، لأنه حينئذ يعل اعلال «قاض» .

ص ٤١ س ١٣ « بن أبان» شدد الباء . والصواب تخفيفها

ص ٤٦ س ١٢ « ويحتمل » ضبطها بضم الياء . وهو خطأ يقع فيه كثير من الناس ، يضمون الياء ويفتحون التاء والميم ، مبنيا للمجهول . والصواب فتح الياء مع كسر الميم ، مبنيا للمعلوم . قال الفيومى فى المصباح المنير : « والاحتمال فى اصطلاح الفقهاء والمتكلمين يجوز استعماله بمعنى الوهم والجواز ، فيكون لازما ، وبمعنى الاقتضاء والتضمن ، فيكون متعديا ، مثل احتمل أن يكون كذا ، واحتمل الحال وجوها كثيرة » .

٥٠ س ٦ قال العبادى فى ترجمة ابراهيم ابن اسحاق الحربى : « وذكر فى كتاب » غريب الحديث » الذى صنفه أبو سليمان الخطابى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الهدهد ، كرامة له ٠٠ » وقد وضع المحقق بعد كلمة « صنفه » رقما ، وذكر فى الحواشى أن فى كل النسخ زيادة ٠ « نقل » ٠ وهذه الزيادة فى نظرى مهمة ، وحقها أن توضع فى الصلب ٠ فهى ـ فضلا عن كونها فى كل النسخ ـ لا يستقيم الكلام بدونها ٠ فما دخل أبى سليمان الخطابى هنا ؟ الا أن يكون نقل فى كتابه هذه التفسيرات اللغوية من كتاب الحربى ، ويكون العبادى لم يقف على كتاب الحربى ووقف على كتاب الخطابى ، وفيه آراء الحربى ، والمشكل هنا أن لكل من الحربى والخطابى مصنفا فى غريب الحديث (انظر مقدمة النهاية ، لابن الاثير) وقد توفى الحربى سنة ٢٨٥ هـ وتوفى الخطابى سنة ٣٨٨ هـ ٠

ص ٥١ س ٢ « أبو عبد الله الزبيرى محمد بن سامرى بن عبد الله بن عاصم ٠٠ صاحب الكافى» وكل ذلك خطأ ٠ والصواب فيه : أبو عبد الله ، الزبير بن احمد بن سليمان بن عبد الله بن عاصم كما جاء فى مراجع ترجمته ٠ انظر تاريخ بغداد ٤٧١/٨ ، طبقات ابن السبكى ٢٩٥/٣ ، طبقات الشيرازى ٨٨ ، طبقات القراء ٢٩٢/١ ، مرآة الجنان ٢٧٨/٢ ، نكت الهيمان ١٥٣ ، وفيات الاعيان ٦٩/٢ ٠ وواضح أن « سليمان » هى القراءة الصحيحة لكلمة « سامرى » التى علق عليها المحقق بأنها فى بعض النسخ « شامرى » ٠

ص ٥٣ س ١٣ قال العبادى فى ترجمة الامام البخارى : « ولم يرد عن الشافعى رحمه الله فى « الصحيح » لانه أدرك أقرانه ، والشافعى رحمه الله مات مكتهلا ، فلا يرونه نازلا وقد وجده عاليا» والخطأ فى « يرونه » فصوابه « يرويه » كما جاء فى طبقات ابن السبكى ٢١٥/٢ ٠ ولو رجع اليها المحقق لوقف على الصواب ، ولما احتاج أن يذكر فى الحواشى أن الكلمة كذا فى ب ، ت ، فى الاصل وح بغير تنقيط ٠ وقبل كل ذلك فالكلمة من اصطلاحات علم الجرح والتعديل ورواية الحديث٠ فكان ينبغى على المحقق أن يفزع الى أهل الذكر ٠

ص ٦٤ س ١ « ان كان لشىء مضى وقع وان لشىء مستقبل لم يقع » وضع المحقق رقما فوق « وان لشىء » وأشار الى أن فى بعض النسخ « وان كان » ولست أدرى لم لم يضع « كان » هذه فى الصلب ، فبها يستقيم السياق ! ٠

ص ٦٧ س ٤ « محمد بن ابراهيم بن منذر . الصواب « المنذر » كما جاء فى بعض النسخ بالهامش ٠ وكما جاء فى كل المراجع التى ترجمت له ٠ وفى السطر نفسه « صاحب اشراف على مذاهب العلماء » والصواب « الاشراف» كما يذكر ابن السبكى دائما ٠

وانظر ما كتبته عن ص ٣٩ س ٢ ٠

ص ٧٨ س ١٣ قوله تعالى : «اعلموا ما شئتم» بتقديم اللام خطأ ، والصواب « اعملوا » بتقديم الميم ٠ وهى الآية ٤٠ من سورة « فصلت » ٠

ص ٧٩ س ١١ قوله تعالى : « يا أبت أفعل ما تؤمر » جعل الهمزة همزة قطع ٠ والصواب أنها ألف وصل « افعل » ٠

ص ٨٨ س ٢ « سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فقال : فذاكروا فيه » • علق المحقق على كلمة « فذاكروا » بأنها فى بعض النسخ « أكثروا » وأرى أن يكون ما فى الصلب : « تذاكروا » •

ص ٩٠ س ١٣ « ان ماسح الخف لا ينوى رفع الحديث » خطأ • والصواب « الحدث » •

ص ٩١ س ١ « وقد عارض بهذا الكتاب ابن نحاس القاضى » رفع « ابن » بالضمة • والصواب نصبه على المفعولية • والفاعل ضمير مستتر يعود على أبى بكر أحمد بن عمر الخفاف ، وهو المترجم وهنا أيضا حذف « ال » من النحـــاس • وقد أشرت اليه قبلا •

ص ٩٦ س ١ «ويكره الرفع الشديد الصوت» ضبط المحقق الفعل بضم اليـــاء وكسر الراء ، مبنيا للمعلوم ، ونصب « الرفع » و « الشديد » والصواب بناء الفعل للمجهول ، ورفع « الرفع » نائبا عن الفاعل ، و « الشديد » على الصفة •

وفى الصفحة نفســها س ٤ « ويكره الدعاء بالشجع وتكلف الصنعة » والصواب : «بالسجع» بالسين المهملة •

ص ٩٨ س ١٠ « لان العرب تقول : غســل الشتاء السطح » علق المحقق على « الشتاء » بأنها فى ثلاث نسخ « السماء » وأرى هذا هو الصواب فان العرب تسمى المطر سماء •

(انظر معجم مقاييس اللغة ٣/٩٨) •

ص ١٠٢ س ٦ قال النبى صلى الله عليه وسلم «جعلت لى الارض مسجدا وانما يجب أن يقول : جعلت دارى مسجدا لله تعالى » فقل المحقق علامة التنصيص بعد « تعالى » على أن الكلام كله من قول النبى صلى الله عليه وســلم • وانما ينتهى كلام الرسول عليه السلام بعد « مسجدا » •

وفى الصفحة نفسها س ١١ « أبو حنيفة أفتى بأن المال بينهما نصفين » الاولى « نصفان » وهو ما جاء فى ثلاث نسخ ، كما أشار المحقق •

ص ١٠٨ س ١٢ « اذا وجد زان ، واذا فقــد شأن » وضع المحقق همزة على ألف « شـــأن » والصواب حذفها لتناسب السجع •

ص ١١٠ س ١٢ « وحكيم بن محمد الذيمونى الفقيه من قراء بخارى » أشار المحقق الى أن فى نسخة : « من قرى بخارى » وقد كان ينبغى على المحقق أن يقف عند هذه القراءة •فقد قال ياقوت فى معجم البلدان ٢/٧٢٧ : « ذيمون بفتح أوله وآخره نون: قرية علىفرسخين ونصف من بخارا» فلعل الناسخ وجد الــكلمة « قرا » فلم يحس قراءتها ، وتطوع بزيادة الهمزة • نعم ترجم ابن الجزرى فى «طبقات القراء» لشخص اسمه «حكيم ابن محمد» ولم يزد فى اسمه على ذلك ، ولم يذكر فى نسبته « الذيمونى » واختلفت سياقة ترجمته عند ابن الجزرى عما فى الانساب لوحة ٢٤١ ب ، واللباب ١/٤٤٩ ، وطبقات ابن السبكى ٤/٣٧٧ وانظر طبقات ابن الجزرى ١/٢٥٧ •

ص ١١١ س ٦ « ووجهه أنهما دليلان تعارضا فى الحس » وجاء فى احدى النسخ : «فى الحسن» وأرى هذا هو الصواب • وهذه اصــطلاحات أصولية محددة ، تشبه الامثال • وقد كان يجب على المحقق ، كما قلت قبلا ، ان يلجأ الى أهل هذا الشأن ، حتى يحفظ للنص روحه وسلامته •

وفى الصفحة نفسها س ١٢ « الظهارة والايلاء والرجعة» والصواب «الظهار» كما جاء فى نسختين بالهامش •

ص ١١٤ س ١٢ « واليه يرجع المآب » الاولى قراءة النسخة ت « واليــه المرجع والمآب » وقد لاحظت أن هذه النسخة كثيرا ما تنفرد بالصواب ومع ذلك لم يلتفت لها المحقق • وقد لاحظتأيضا أن المحقق فى صنع فهرس الاعلام قد بذل جهدا فى تحقيق الاسماء ، ولو أنه فعل هذا فى تحقيق النص لسلم من كثير من الاخطاء ، ولسلم أيضا من اثقال النص بالحواشى وفروق النسخ •

ومهما يكن من شىء فلن نســتطيع أن ننكر للمحقق الفاضل هذه اليد التى أسداها الى تراثنا العربى ببعث أصل مبكر من تراثنا الخالد• وتحية لكل الجهود المخلصة •

محمود محمد الطناحى



عرض ونقد :

فؤاد محمد شبل

تاريخ الأقباط فى مصر



تأليف : زكى شنوده

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية

٤٠٦ ص ١٧×٢٤ سم ٣ أجزاء . ٨٠ ق

يوحى عنوان الكتاب بأنه عرض لتاريخ المسيحية المصرية فى صورتها التى اعتنقها المصريون . وهى العقيدة المينوفستية التى تقول بأن للسيد المسيح عليه السلام طبيعة واحدة هى الطبيعة الالهية . عكس المذاهب المسيحية الاخرى التى تنادى جمهرتها بأن للسيد المسيح طبيعتين . بشرية وقت حياته على الارض ، والهية قبل نزوله اليها وبعد صعوده الى السماء .

ويعترف الكتاب فى مقدمة بقلم الاستاذ عياد عياد بأن الغاية من الكتاب سد حاجة المكتبة القبطية الى سلسلة من تاريخ مفصل للكنيسة القبطية .. سلسلة تبين – على حد قوله – حياة البطولة التى امتلأت بها مصادر التاريخ الوطنية والاجنبية تؤكد فى يقين مدى الصلابة فى الحق والذود عن المبدأ والصمود فى العقيدة والتسامى فى الاخلاق والتأصل فى الروحانية .



كما يعترف المؤلف فى مقدمته (صفحة ٧ من الجزء الاول) بأن الغاية من الكتاب عرض لتاريخ الاقباط (أى المسيحيين المصريين) خلال الالفى سنة الماضية .

بيد أن المؤلف ينقلنا نقلة خطيرة لا يدرى القارئ – للوهلة الاولى – مغزاها . اذ يتحدث فى الفصل الاول عن عقائد قدماء المصريين . وكنت أظن أن يبحث المؤلف مدى ارتباط عقائد قدماء المصريين بهذا اللون من المسيحية الذى اعتنقه المصريون وأصروا عليه واستشهدوا فى سبيله فى بطولة نادرة ، وتمسكوا به رغما عن مخالفته لجميع المذاهب المسيحية الاخرى . بيد أنه لم يذكر سوى لمحة عابرة فى صفحتى ٣٦ و ٣٧ . وذكرها للتدليل على أن اعتناق المصريين للمسيحية جاء طبيعيا . وكم كنت أود لو استعان بالدكتور باهور لبيب فى هذا المجال ، ليبصره بتأثير عقيدة المصريين القدماء على المسيحيين المصريين سيما تأثير الاساطير المصرية القديمة على القصص الدينى المسيحى المصرى (قصة القديس مارجرجس والتنين وصلتها بقصة حورس وست – مثلا) .

ويعود المؤلف (وهو كما يبدو للقارئ وفقا لعنوان كتابه يؤرخ لتاريخ المسيحية المصرية) الى بحث تاريخ قدماء المصريين . مدعيا بأن التاريخ المصرى القديم هو المقدمة الطبيعية لدراسة تاريخ الاقباط ، وأن تاريخ الاقباط هو تاريخ المصريين وعوامل قيام الحضارة المصرية والادارة عن نشأة الامة المصرية والمجتمع المصرى وأصل المصريين . ويمضى المؤلف – بعد ذلك – فى الكلام والآداب والنحت والتصوير .. الخ .

وفى الفصل الثانى من الجزء الاول ، يتكلم المؤلف عن ظهور المسيحية وعن الرسل والكتاب المقدس ودخول المسيحية مصر . ويستند فى حديثه على السرد والبحث ، متجاهلا – تماما – البحث العلمى المجرد .

وفى الجزء الثانى – وهذا هو العجيب – يتحدث عن المجتمع اليهودى والولايات والمدن اليهودية . ويعود الى سيرة السيد المسيح مرة أخرى .

فالكتاب – بأجزائه الثلاثة – يخلو خلوا تاما من أية صبغة علمية ، على الرغم من ايراده – فى



نهاية كل جزء طائفة طيبة من المراجع ، لم أر لاكثريتها الساحقة أثرا على تفكير المؤلف ولم ألمح لها تاثيرا على كتاباته • ولعله حشدها حشدا لايهام القارىء بجدية بحثه •

ولقد استوقف نظرى عبارة ذكرها الدكتور بهور لبيب فى تقديمه الجزء الثالث • والدكتور باهور عالم متخصص جليل كنت أود أن يجنبه علمه هذا الانحراف الخطير • اذ قال بالحرف **« ولا شك أن الاقباط هم السلالة المباشرة لقدماء المصريين ، وان تراثهم ما هو الا امتداد لتراث هؤلاء الاجداد ، وقد ورثوا عنهم الملامح والطبائع والاخلاق ، بل ان لغتهم القبطية ما هى الا التطور الاخير للغة قدماء المصريين » •**

وردد المؤلف نفس العبارة فى كلمتهالتمهيدية •• ثم ينزلق المؤلف الى القول بأن الاقباط هم البقية الباقية من قدماء المصريين التى وقفت أمام نوائب الزمان فى صبر وصلابة وقوة ايمان •• ثم يذكر أن الاقباط ـ وحدهم فى منطق المؤلف ـ قد ورثوا عن قدماء المصريين التقاطيع والملامح وسائر الاوصاف الجسدية وما اتصفوا به فى سائر النواحى الفكرية والعاطفية والعائلية والعملية •

والكتاب ـ وهذا وصفه ـ لن يعنينى من الناحية العلمية ، فهو ـ والحق يقال ـ أبعد ما يكون عنها • كما لن تعنينى قيمته التاريخية وهو يخلو منها على الاطلاق ، **ولكن المؤلف يروج هنا لنظرية ضالة مضللة •**

فانه يجرد ٩٢٪ من الشعب المصرى من أصالته الحضارية ، ويجعل هذه الصلة وقفا على المسيحيين المصريين ، دون أن يستند على أساس ، ولو واه•

فهل السيد المؤلف يضمن اتصال النسب بين قدماء المصريين والمسيحيين المصريين دون سواهم ؟

ألم تحكم مصر بالفرس واليونان والرومان أجيالا طوالا قبل الفتح العربى ، فهل المؤلف متأكد من عدم حدوث تمازج بين المصريين وهؤلاء الغزاة ؟

لقد وفد العرب باعداد زهيدة وكان السكان وقت الفتح يتراوحون بين ثمانية ملايين واثنى عشر مليونا ، فهل يعنى اعتناق المصريين الاسلام وصيرورته على مدى الايام عقيدة أكثريتهم الساحقة ، هل يعنى هذا زوال أصالتهم المصرية؟ ولم لا يعنى اعتناق المصريين المسيحية ـ وهى

بالمثل عقيدة وفدت الى مصر من خارجها ــ زوال صفتهم المصرية وفقا لمنطق المؤلف ؟



واذا كانت المصرية ثقافة ، فلقد تشرب الاقباط بالثقافة اليونانية ، وكما أنهم يستوعبون الآن ــ مثل المسلمين سواء بسواء ــ الثقافة العربية ٠ واللغة العربية هى اليوم لغة الكنيسة المرقسية ، وهذا ما يعنيه المؤلف ــ ضمنا ــ على الاقباط فى كتابه ٠

وهل حقيقة أن المسيحيين المصريين يختلفون فى القد والسحنة والاخلاق والعادات عن اخوانهم المسلمين المصريين ٠٠ لأنه ــ كما يدعى المؤلف ــ قد تبين لعلماء الاجناس أن التشابه يكاد أن يكون تاما بين الموميات المصرية القديمة وبين أقباط اليوم ٠ وبذلك يمكن القول بأن أقباط اليوم هم من ناحية الجنس سلالة مباشرة لقدماء المصريين ٠

فهل يقصد المؤلف القول بأن بمصر أمتين ؟

أمة أصيلة ــ هى الاقلية ــ انحدرت من أصلاب قدماء المصريين مباشرة ٠

وأمة دخيلة هى الاغلبية ٠

ولا يستطيع قارىء هذا الكتاب أن يلمس أى جهد للمؤلف ٠ فكتابه لا يزيد عن كونه قصاصات من الكتب الدينية تخلو من الاتجاهات العلمية ، فضلا عن تفكك أبحاث الكتاب ٠

وكان أجدر بالمؤلف أن يكتفى بايراد النواحى الدينية البحتة ليقتصر تداول الكتاب على اخواننا المسيحيين المصريين ٠ أما ما يتصل بالتاريخ المصرى القديم فأجدر أن يتركه للمتخصصين ، ومكتبتنا العربية ــ ولله الحمد ــ عامرة بالمؤلفات عن التاريخ المصرى القديم ، قام بها علماء مسلمون ومسيحيون وأكثريتهم مسلمون ٠

ان المصريين جميعا يفخرون بأمجاد أجدادهم فى العصر الفرعونى ، ويشيدون بصلابة المسيحيين المصريين ضد طغيان الرومان وباقبالهم على الاستشهاد فى سبيل عقيدتهم ، كما يعتزون بانتصارات آبائهم على التتار ٠

فأمجاد مصر فى جميع العصور والاحقاب تنزل فى قلوبنا وأرواحنا ــ مسلمين ومسيحيين ــ فى أقدس منزلة ٠

فؤاد محمد شبل »

الهاشميون والثورة العربية الكبرى



الشريف حسين

عرض ونقد

دكتور صلاح العقاد

تأليف

أنيس صايغ

الناشر : دار القلم

قد يحسب القارىء أن موضوع الثورة العربية التى نشبت ضد الدولة العثمانية سنة ١٩١٦ استنفد لكثرة ما كتب عنها ، غير أن مؤلف هذا الكتاب لم يقصد مجرد العرض التاريخى وانما استهدف الكشف عن حقائق جديدة توضح كيف أن زعامة الهاشميين لهذه الثورة كانت خطأ كبيرا اذ اعتبروها طريقا للمجد الخاص ولم ينظروا اليها كثورة للشعب العربى وتنكروا للأهداف التى وضعها دعاة الثورة الحقيقيون من أمثال عزيز المصرى وأقرانه فى جمعيتى العهد والفتاة ٠

والمؤلف واع بخطته فالتزم بها طوال الدراسة ولم يقع فى عموميات الا فى حالات قليلة ٠ مثال ذلك تصوير المطامع الاستعمارية فى الشرق

العربى الذى يستغرق نحو تسع صفحات من ٥١ الى ٦٠ وقد كان من الصعب أن يضيف شيئا جديدا عن هذا الموضوع الكبير فى هذه الصفحات القليلة وكان القصد من ذلك أن يخلص الى أن إتصال الانجليز بأشراف مكة لا يرجع فقط الى أيام الحرب الأولى ، بل يعود الى سنة ١٨٨٠ وها هنا يستعرض المؤلف وثائق جديدة تكشف عن أن فروع الأسرة الهاشمية المتنافسة على الحكم فى مكة لم تتورع عن الاتصال بقناصل بريطانيا المعتمدين فى جدة · وقد كان أسلوب آل عون وهو الفرع الذى ينحدر منه الشريف حسين وأولاده هو محاولة الاستفادة من العثمانيين والانجليز معا ، وخلافا لما هو شائع وثق الحسين صلاته أولا بالدولة العثمانية وقبل ان يكون أداة فى يدها لقمع الحركات العربية المناهضة فى شبه الجزيرة مثل تلك التى قامت فى عسير أو فى اليمن وعلى ذلك فان رفض الحسين لمد خط حديد الحجاز الى مكة لم يكن ناشئا عن سوء علاقاته بالدولة العثمانيه بل خوفا من سخط القبائل التى تستفيد من تأجير الجمال لنقل الحجاج ، لذلك كله يخلص المؤلف الى نتيجة هامه وهو أن الهاشميين لم يدعوا قط للثورة العربية ضد العثمانيين والصحيح هو القول بأن الهاشميين انما دعوا لها · وهؤلاء الذين عرضوا فكرة اشتراك الهاشميين فى الثورة انما قصدوا فى البداية الزعامة الدينية ، وهو يؤكد ذلك بوجود مشروعات قديمة ترجع الى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وتستهدف اقامة دولة عربية مستقلة تدير شئونها السياسية هيئة علمانية مع ترك الزعامة الدينية لأشراف مكة كبديل عن الخلافة العثمانية ، مثال ذلك مشروع يوسف كرم الزعيم الشعبى اللبنانى الذى تقدم به وهو فى منفاه الاختيارى بايطاليا فقد اقترح أن يكون الأمير عبد القادر الجزائرى المقيم فى دمشق آنذاك رئيسا لهذه الدولة ، وفى سنة ١٩٠٥ قدم نجيب عزورى مشروعا آخر بانشاء دولة عربية مستقلة تشمل الشام والعراق وشبه جزيرة العرب واقترح أن يكون اشراف مكة هم زعماؤها الدينيون ومن الغريب أن الكاتب نقل فى هذا الصدد أن عزورى اقترح أن يكون الخديوى عباس حلمى الثانى هو الرئيس السياسى لهذه الدولة العلمانية ، ولو اطلع المؤلف على كتاب عزورى المسمى « يقظة الامة العربية » لعرف أنه من المستحيل أن يكون عزورى قد اقترح الخديوى لسبب بسيط وهو أن هذا المغامر المارونى قد أخرج مصر والمصريين من مفهوم الوطن العربى وفضلا على ذلك كان يدعو لوضع الدولة العربية المقترحة تحت الحماية الفرنسية ·

والحق أن المؤلف فى غمرة هجومه على الهاشميين نسى أو تناسى أخطاء شخصيات عربية كثيرة فهو مثلا يذكر حركة طالب النقيب فى جنوب العراق وكيف أن هذا الزعيم العربى اتجه فى سنة ١٩١٣ الى تكوين زعامة مشتركة من أمراء شبه الجزيرة وكيف أن بعض الزعماء العرب الآخرين مثل رشيد رضا كان يفضل زعامة عبد العزيز آل سعود فى نفس ذلك الوقت لأن كثيرين شكوا فى أن يكون الشريف حسين على صلة بالعثمانيين ولكن ألم يكن معظم الرؤساء العرب فى شبه الجزيرة على صلة مريبة أيضا بدول استعمارية لها أطماع معروفة فى الشرق العربى · فابن سعود مثل أمير المحمرة وبعض حكام الامارات كانوا حلفاء أوفياء للانجليز بينما كان الادريسى حاكم عسير مرتبطا بوشائج قوية مع الطليان عن طريق مستعمرتهم فى ارتريا ·

ويبدو أن المؤلف قد تنبه الى فساد تلك الزعامات ولكن بعد أن انتقل الى الحديث عن الشخصيات العربية الفذة التى اخلقت للحركة العربية ومهدت السبيل للثورة خلال عامى ١٩١٤، ١٩١٥ وعلى راس هذه الشخصيات عزيز المصرى الذى يكرس له المؤلف عدة صفحات شيقة فيروى نضاله ابان تكوين العهد السرية من سنة ١٩١١ الى سنة ١٩١٤ ثم كيف قبض عليه الأتراك واوشكوا على أعدامه، وهنا يوضح المؤلف دوافع الوساطة الانجليزية للافراج عنه، فقد توهمت السلطات الانجليزية فى مصر انه يمكن استخدام عزيز المصرى كأداة للمساومة مع الحركة العربية فى حالة قيام حرب بين الانجليز والدولة العثمانية ، ولكن الضابط العربى رفض المساومة بل انه كان من أوائل الذين اعترضوا على « تزعيم الحسين للثورة » ونبه الى خطأ الاعتماد على بريطانيا فوصفه زملاؤه السوريون اللاجئون فى مصر بالاسراف فى التشاؤم وكأنه أراد أن يثبت لهم

الخطأ بطريقة عملية فقبل على مضض قيادة الجيش العربى التابع للهاشميين فى الحجاز وما أن وصل الى تلك البلاد فى سنة ١٩١٦ حتى اصطدم بالشريف وبالانجليز ، فقد كان هؤلاء يريدون للجيش العربى أن يظل قوة بدوية عادية أما عزيز المصرى فاستهدف انشاء جيش نظامى على أحدث طراز ، ولذلك بادر الانجليز الى طلب اقالته من القيادة .

ويعلق المؤلف على ذلك بقوله « ... وبذلك سقط أول شهيد من قافلة شهداء الحلف البريطانى الهاشمى التى تضم محمد شريف الفاروقى من الموصل وطالب النقيب من البصرة وحفيدى عبد القادر الجزائرى من دمشق . أما قيادة الجيش العربى فقد رشح نورى السعيد اليها صهره جعفر العسكرى وكان كلاهما يقف وراء مأساة المصرى » .

وكما تحدث المؤلف عن دور عزيز المصرى فانه تناول عديدا من الشخصيات المعروفة التى ساهمت فى الحركة العربية ، سواء بقصد المؤامرة أم بقصد خدمة القضية الوطنية . وقد مرت فى الفقرة السابقة اشارة الى نورى السعيد وللأسف لم يوضح المؤلف الظروف التى تحول من خلالها من عضو فعال فى جمعية العهد الوطنية الى عميل من عملاء الانجليز والهاشميين وهو يعبر عن ذلك بقوله :

وفى ظروف غامضة التقى السعيد بالقوات البريطانية المحتلة للبصرة ومن هناك استدعاه الانجليز الى الهند ثم نقلوه الى القاهرة ليعمل مع المكتب العربى التابع للمعتمد البريطانى . وفى مصر التقى السعيد بعميل آخر هو صهره جعفر العسكرى الذى كان يقاتل مع السنوسى ضد الطليان فأسره الانجليز وضموه الى قافلة الضباط الذين سيصبحون فيما بعد من أعمدة الهاشميين فى العراق لقد تناول المؤرخون بالتفصيل المحادثات التى جرت بين الشريف حسين من جهة وبين الانجليز والعثمانيين من جهة أخرى وكان رأى أمين سعيد صاحب المؤلفات المشهورة عن الثورة العربية هو أن أمير مكة تردد طويلا قبل أن يقبل التعاون مع الانجليز لأنه كان حريصا على عدم انقسام العالم الاسلامى وانه حينما قبل التحالف لم يكن على علم بنوايا بريطانيا الحقيقية وليس ذنبه أنه خدع وهنا تبرز أهمية كتاب الأستاذ أنيس صايغ لأنه يرد بوساطة وثائق وحقائق ثابتة على هذا الرأى وغيره مما روجه الكتاب الموالون للأسرة الهاشمية . فهو **يروى كيف أن الشريف حسين أراد أولا أن يساوم مع العثمانيين فطلب اليهم فى سنة ١٩١٥ أن يعترفوا به كحاكم وراثى فى الحجاز وان يحمل رسميا لقب الأمير ولهذا الغرض أوفد ابنه فيصلا الى الآستانة ولم يقرر الانقضاض على العثمانيين الا بعد أن رفضوا هذه المطالب وبعد أن سقطت عفوا بعض الأوراق التى تثبت نيتهم فى خلعه** وقد عثر عليها بعض البدو وسلموها للحسين .

واذن فانه لم يتردد فى التحالف مع الانجليز لأسباب مثالية كما ظن بعض المؤرخين بل فضلا على ذلك لم يتمسك أثناء تفاوضه مع مكماهون بالمبادىء التى اتفق عليها الزعماء الوطنيون العرب ، بل أخذ يهتم بمسائل شخصية مثل اعتراف الدول له بلقب الخلافة وهو ما لم يرد فى برنامج جماعتى العهد والفتاة الداعيتين أصلا للثورة . وعلى كل فلم يكن من المعقول أن يتجه أهل الشام وهم من أكثر البيئات العربية تقدما آنذاك من الناحيتين الاجتماعية والسياسية الى التفكير فى اخضاع بلادهم لحكومة غير عصرية مثل حكومة شريف مكة .

اتهام خطير آخر يبرزه المؤلف وهو أن الحسين قد علم بمضمون الاتفاقات الانجليزية الفرنسية الخاصة بتقسيم الوطن العربى الى مناطق نفوذ بعيد اعلانه الثورة على العثمانيين ، وكان الشائع هو أن قادة الحركة العربية لم يطلعوا على هذه الاتفاقات الا بعد قيام الثورة الشيوعية التى كشفت الستار عن الاتفاقات السرية ومن بينها اتفاق تقسيم أشلاء الدولة العثمانية .

ذلك أن بيكو الطرف الفرنسى فى مفاوضات التقسيم القى خطابا على أعضاء الجالية السورية اللاجئة فى مصر وصرح فيه بأن بلاده تنوى ان تبسط حمايتها على سوريا ولبنان ، وبادر الفاروقى ممثل الشريف الى ابلاغ مكة بهذا الخطاب الا أن الحسين لم يشأ أن يغضب حلفاءه باثارة هذا الموضوع .

وعلاوة على هذا التصرفات المشبوهة فان تصور الحسين لمفهوم القومية العربية كان منحرفا، **فهو يستعمل تعابير الأمة والوطن والقومية والاستقلال كألفاظ مطاطة غير محددة ينتمي أغلبها الى المعنى التقليدي الذي سبق نشوء الفكرة القومية ، يفهم من القومية انها أداة لخدمة الدين والشرع ويفهم من الوطنية انها الذود عن الاسلام وحمايته من الالحاد** ٠ والنظام المرجو للدولة العربية هو نظام الخلافة الذي يشمل الدين والدنيا معا ويدعو الى القومية والوطنية لأن تقاليد الشرع وأحاديث الرسول قد أوصت بهما والقومية هي المذهب أما الاستقلال فهو تحرير المسلمين المؤمنين من المسلمين الذين ألحدوا وكفروا ٠

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى بحث دور زعيم هاشمي آخر هو فيصل بن الحسين ذلك انه وعد في المقدمة بأن يكرس الكتاب لأربعة فقط من الأسرة الهاشمية هم الحسين وفيصل وعبد الله وعلي ، ونظرا الى ضآلة دور هذا الأخير الذي لا يحتل سوى جزء من فصل واحد فاننا سنورد فيما يلي خلاصة عرض المؤلف لشخصيتي فيصل وعبد الله ٠

لقد كان للمغامر الانجليزي لورنس دور فعال في اعطاء فيصل مكان الصدارة في الحركة العربية فهو الذي رشحه لقيادة جيش الشمال ثم لتمثيل أبيه في مؤتمر الصلح ولم يكن تصور فيصل يختلف عن أبيه من حيث اعتبار الحركة العربية قضية الأسرة فقد كتب مذكرة الى رئيس الحكومة البريطانية في سبتمبر ١٩٢٠ أي بعد طرده من سوريا محتجا على اجراءات فرنسا ضده لأنها « جعلت موقف عائلتنا أمام العالم الاسلامي عامة والعالم العربي خاصة موقفا لا يمكن لعائلة احتماله » ٠

وقصة المغامرات التي ملأت حياة فيصل بين عامي ١٩١٨ ، ١٩٢٠ ان هي الا محاولة لانشاء عرش له في سوريا بالرغم من فقدان الشعب السوري للثقة به ومنذ البداية مال كثير من السوريين الى « تزعيم » شخصيات عربية أخرى مثل سعيد وعبد القادر الجزائريين ، وقد كره فيصل احياء الأحزاب السياسية التي دعت للثورة مثل العهد والفتاة ولكن آماله خابت اذ تكونت جمعيات وأحزاب أخرى كثيرة وخاصة بعد أن عرفت تنازلات فيصل لفرنسا في مفاوضاته مع كلمنصو وقد قدم هذه التنازلات على أمل أن تعترف فرنسا بملكيته في سوريا حتى ولو أدى ذلك الى تجزئة سوريا ولبنان ٠ وبهذه المناسبة يسمى المؤلف احداث سنة ١٩٢٠ بنكبة التجزئة ويحمل الهاشميين المسئولية الاولى عنها ٠ ويسمى الفترة الواقعة بين سنة ١٩٢٠ و سنة ١٩٤٨ فترة ما بين النكبتين ويعني بذلك التجزئة ونكبة فلسطين ٠

ويبدو ان فيصلا شعر بحرج مركزه بعد عودته من فرنسا في أوائل سنة ١٩٢٠ فأخفى حقيقة الاتفاق عن الشعب وبهذه الطريقة حصل على بعض الأصوات المؤيدة لملكيته في مؤتمر ٨ مارس ومع ذلك لم يستطع أن يحظى برضاء السلطات الفرنسية لأنه كان مضطرا لمداهنة العناصر الوطنية السورية التي بلغت درجة عظمى من الوعي آنذاك وخاصة لجنة الدفاع عن الوحدة السورية واللجنة الوطنية العليا ٠

ويضيف الكتاب حقائق جديدة بعد ذلك حول اعلان ملكية فيصل في العراق سنة ١٩٢١ ، فقد رسمت الخطة في مؤتمر القاهرة الذي عقده الخبراء الانجليز بشئون الشرق الأوسط وقرروا فيه أن يتخذ تمليك فيصل في العراق شكلا ديموقراطيا وذلك باجراء استفتاء ، أما من الناحية العملية فقد اتخذ الانجليز اجراءات علنية وخفية لتزييف الاستفتاء وفرض فيصل على العراق ٠ من ذلك ابعاد جميع المنافسين وهم كثيرون سواء بالوعد أو التهديد والمنافس الوحيد الذي أصر على ترشيح نفسه حتى النهاية حمل غدرا على سفينة بريطانية خارج العراق وكان هذا المنافس هو طالب النقيب زعيم البصرة ٠ واذن فان تصويت ٩٦٪ لفيصل لم يكن الا أسطورة وحقيقة الأمر انه لم ينل سوى تأييد بعض رؤساء العشائر الذين تلقوا اعانات مالية من السلطات البريطانية وممثلي الاقليات الذين تطلعوا منذ البداية الى الاحتلال البريطاني مثل الأشوريين أو اليهود ٠

كان عبد الله بن الحسين يكبر فيصلا في السن ولذلك حقد على أخيه احتضان الانجليز له ، وكان مستعدا بدوره لتقديم ما يشاءون من تنازلات في سبيل ايجاد عرش له ، وذهب الى حد تزوير معاهدة باسم أبيه قبل فيها نظام الانتداب على

البلاد العربيــة المجزأة ، واقامة الوطن القــومى لليهود فى فلسطين مقابل تعهد بريطانى بحمـاية الهاشميين فى الحجاز ضد ابن سعود وتقديم المبلغ الذى اعتاد الانجليز منحه للحسين منذ ســـنه ١٩١٦ .

على ان الحسين فوت على ابنه عبد الله تحقيــق أحلامه الشخصية لأنه كان قد فقـــد الأمل فى انشــــاء الدولة العربية الكبرى تحت زعامته ، لذلك كان اليأس يخيم على « الأمير الهاشمى » فى سنة ١٩٢٠ حينما فكر فجأة بعــد زوال عرش فيصل فى سوريا فى أن ينتقل الى مشرق الأردن عله يظفر بواسطة التقارب من الدول الكبرى فى ان يحل محل أخيه .

ولكى يتمكن عبد الله من جمع الناس حوله فى الحجاز حتى يدخل الى شرق الاردن محاطا بالاتباع كيفما اتفق ، أخذ يشيع بأنه ينوى أن يقاتل ضد الفرنسيين فى سوريا لتخليصها من الانتداب وكان يعلم تماما انه عاجز عن تحقيق ذلك فقد سبق له أن فشــل فى محاربة الترك كما هزم هزيمـــة منكرة أمام ابن سعود وليس هو بأفضــل من يوسف العظمة وغيره من الوطنيين السوريين الذين خانهم الحظ فى معركة ميسلون . ومن هنا استطاع عبد الله ان يوثق صلاته بهربرت صمويل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين الذى كان يعد فى نفس الوقت من زعماء الصهيونية وبهذه الطريقة تمكن من اقناع مؤتمر القاهرة باقتطاع منطقة شرق الأردن واعلانها امارة منفصلة تحت حكمه رغم معارضة الغالبية العظمى من السكان .

ويعدد المؤلف الأسباب التى حدث بريطانيـا الى تكوين هذه الامارة على النحو التالى أولهـا أن كل كيان جديد انما هو لمصلحة بريطانيا لأنه تفتيت جديد للوطن الواحد وعقبة جديدة تشغل بال القوميين وتلهيهم عن الاســتعمار وثانيها ترسيخ سلطة الهاشميين وهم أصدقاء بريطانيا ومراضاة أمير فاشل معقد مراضاة تضعه تحت دين معنوى لبريطانيا طيلة حيــاته وثالثها أن كيانا ضعيفا اقتصاديا وثقافيا وسياسيا كشرق الاردن لابد أن يظل محتاجا الى المعونة البريطانية ويظل بالتالى خاضعا لنفوذها وقاعدة لهــا فى الشرق مهما تبدلت الأحوال .



لورانس

وبعد أن يمر الكاتب فى عجالة سريعة على موقف كل من فيصــل وعبد الله فى فترة الانتداب البريطانى ينتقل الى القسم الرابع والاخير الذى يعد من أطراف أقسام الكتاب وأكثرها عمقــا فهو يجمل فيها المآخذ التى سجلهــا التاريخ على الأسرة الهاشمية بصفة عامة ، وأبرز هذه المآخذ هو تخلفها دائما فى مفهوم القومية ففى ســنة ١٩١٦ خلط الحسين بين الدين وفكرة العروبة وكأنه عاد الى ذلك الالتباس الذى ساد ابان القرن التاسع عشر . **وفيما بين الحربين خدم الهاشميون لعبة السياسة الانجليزية وهى فصــل المشرق العربى عن مصر فشجعوا الشائعات المغرضة التى تدعى بأن لها ظروفا خاصة تختلف عن بقية الوطن العربى** ، فلما غير الانجليز هذه النظرة فى سنة ١٩٤٤ واشركوا مصر فى تأسيس الجامعة العربية أخذ الهاشميون يتمسكون بنظام الجامعة على أنه الصورة المعبرة عن الحركة العربية وحقيقة الأمر أن هذه الصورة كانت قد تبدلت وحلت محلها صورة جديدة وهى تحقيق الوحدة فى ظل دولة



تقدمية وعدم الاكتفاء بالرباط الواهي الذى تربط به الجامعة بين أعضائها أى انه كلما انتقلت الحركة العربية من مرحلة من مراحل تطورهـــا ظل الهاشميون متمسكين بمفهوم المرحلة الســابقة ثم وقفوا نهائيا عن مجاراة التطور حينما دخلت الفكرة القومية مضـــامين اجتماعية وأعنى بذلك اخراج القومية العربية عن طابعها اليمينى وربطها بالفكر الاشتراكى المأخذ الثـانى هو مسئوليـــة الهاشميين عن نكبة التفكيك ، فان فيصلا أخرج خلال امارته ثم ملكه فى سوريا ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ موضوعى فلسطين ولبنان عن القضـــية العربيـــة العـــامة خـــلال مباحثاته مع مسئولى بريطانيا وفرنسا والحركة الصهيونية فى لندن وباريس ثم أخرج ، بعد أن انتقل الى العراق ، قضية العراق عن القضية العربية العامة وعالجها بمعزل تام عن الجوانب العربية الاخرى وحاول ربط العراق بأمم شرقية غير عربية وببريطانيا ، على حساب الكيانات العربية الأخرى ولم تتعد اهتماماته بســـــوريا وفلسطين حدود المصالح الشخصية أو الاقليميـة أما أخوه عبد الله فلم يفهم من القضية العربية أكثر من اقامة دولة ســـورية موحدة يجلس على عرشها من زاوية هذه المصلحة الضيقة كان يعالج علاقاته مع الحكومات والشعوب العربية الاخرى ٠

بقيت مآخذنا على الكتاب وهى ليست بالخطيرة، ومن حيث الموضوع تلاحظ أن الكاتب خصـص فصلا صغيرا لدراسة موقف فيصل أثناء الانتداب على العراق من ١٩٢٠ الى ١٩٣٢ ولا يكاد يذكر شيئا هاما فيما يتعلق بموقف عبد الله فى شرق الاردن التى أمتد الانتداب فيها من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٤٦ مع انه درس دراسة تفصيلية قيمة دور الرجلين فيما بين سنة ١٩١٨ ، سـنة ١٩٢٠ ٠ وهو يذكر فى المقدمة ان الكتاب لا يتقيد بفترة زمنية ويبدو ان المؤلف كان قد تعب حينما وصل الى هذه الفترة من حياة الهاشميين ٠

ومن حيث الشكل نأخذ على المؤلف تســـمية الكتاب الهاشميون والثورة العربية الكبرى مع أن الدراسة تهدف الى نفى الصفة الثورية عن الحركة التى قادها الهاشميون وكان الكاتب نفسه عاد فتنبه الى هذه الحقيقة لذلك أخذ يستخدم كلمة حركة بدلا من ثورة فى النصف الآخير من الكتاب٠

ومأخذ شكلى آخر هو أن مثـل هذه الدراسة العلمية القيمة كانت تتطلب ادراج ثبت بالمراجع فى نهاية الكتاب وعدم الاكتفاء بذكرها فى طى الصفحات ٠

ولا تقلل هذه المآخذ من قيمة الكتـــاب ونحن نتطلع الى اخراج الجزء الثـــانى الذى وعد المؤلف بأن يخصصه لدور الهاشميين فى نكبة فلسـطين فتلك قضية حيوية تناولتها الصـــحف المصرية مؤخرا ونشرت بصددها وثائق جديدة ٠

د ٠ صلاح العقاد

حتى يعود شعبنا

نظم

هارون هاشم رشيد

عرض ونقد :

ملك عبد العزيز



الناشر : دار القلم

ديوان « حتى يعود شعبنا » هو آخر دواوين هارون هاشم رشيد ، الشاعر الفلسطيني المعروف ، بعد دواوينه السابقة « مع الغرباء » ، « عودة الغرباء » ، « غزة في خط النار » و « أرض الثورات » . انه شاعر كرس شعره لقضية فلسطين كما هو واضح من عناوين دواوينه حتى لقد لقب بحق « بشاعر العودة » .

ولقد مر الشعر العربي الذي اتخذ موضوعه قضية فلسطين بمراحل مختلفة : مرحلة ما قبل النكبة ، وفيها تنبيه للشعب العربي وحثه على النضال لكي يقف صفا واحدا في وجه الاستعمار والصهيونية ، كما فيه مهاجمة للملوك الخونة المتخاذلين .

أما بعد نكبة التقسيم فقد ملأ نفوس الشعراء الحزن والحيرة والقلق، بل والشك أحيانا في قدرة العرب ـ في تلك الحال التي كانوا عليها من تخاذل وتفكك ـ في أن يستطيعوا شيئا في دفع النكبة والتخلص من آثارها . وكانت هذه المرحلة مليئة بالحديث عن صور التشرد والدمار التي حاقت بأهل الأرض السليبة ، ووصف حالة اللاجئين وما فيها من بؤس .

ثم بدأت الأمة العربية تسترد ثقتها في نفسها ، خصوصا ، بعد الثورات والانتفاضات التي تمت في كثير من البلاد العربية ، فتوالت نغمات الحقد المقدس ، والدعوة للثأر ، تصاحبها نغمات الحنين الى الأرض السليبة ، والأمل الواثق في استردادها ، كما أشاد الشعراء بما قدمته النكبة من يقظة في الشعوب العربية ، أطاحت بكثير من العروش، والحكومات .

وفي ديوان « حتى يعود شعبنا » نجد أثرا من كل تلك المشاعر التي مرت بها الأمة العربية .

نعم ، نحن لا نجد الشك في قدرة الأمة العربية على استرداد الأرض السليبة كما حدث عقب النكبة مباشرة ـ ولكن نغمات الحزن واستبطاء الحل ما زالت لها آثارها الواضحة . انها لا تتحدث عن طوابير النازحين ، او عن حياتهم المشردة في الخيام ، ولكنها تصدر عن تأمل حالهم وقد تفرقوا في الأمصار . بحثا عن العيش ، والاحساس بالغربة يطاردهم ، وتجابههم بعض مشاعر ذوى النفوس الضعيفة والعزائم الحائرة الذين يقولون لهم « لا جدوى » ، كما تلاحقهم تلك الغربة التي دسها الاستعمار والصهيونية ، وصدقها بعض السذج من الأمة العربية ، واستخدمها الخونة ـ بأن الفلسطينيين هم الذين باعوا أرضهم لليهود . وازاء كل ذلك يطل الحزن في شعر هارون هاشم رشيد فيقول في قصيدته الحارة « متى نصل » :

تسائلني متى نصل
وقد ضلت بنا السبل
وتمضي في مهب الريح لا قبس ولا أمل
كأنا لطخة للعار اثم ليس يحتمل
نحط الفجر في بلد
وعند الليل نرتحل
هنا وهناك في أى المواطن ... زادنا الخجل
لقد بعتم مواطنكم
لأغراب بها نزلوا
فذوقوا ما جنت
أيديكمو يا قوم واحتملوا
يرددها الجناة وهم
على أشلائنا وصلوا

***

وفي أعماقنا تهتز
آمال وتقتتل
ويولد كل ثانية
لنا قبس ويندمل
وتصرع في جوانحنا
الرؤى الخضراء تنخذل

***

متى وتظل تسألني
متى يا شاعرى نصل
متى ؟ .. يا ليتني أدرى
و « ليت طريقها الزلل





أما قصيدة « بلا جدوى » ففيها مع نغمات الحزن الخفية نغمة الايمان والاصرار والأمل :

يقولون بلا جدوى
أضعت العمر والزمنا
وتحلم أن ترى بيتنا
يعود اليك أو وطنا
وأنت ممزق اربا
مبعثرة هنا وهنا
غريب فى مدار الكو
ن لا أرضا ولا سكنا
ترقب أن يطل عليك فجر أو يلوح سنا
وما علموا بأن يدى
تهئ فى الظلام دنى
أنى فى الرماد لظى
سيحرق كل من جبنا

ثم يذكر بكفاح الشعب الفلسطينى قبل النكبة ، كما يشير الى أثرها فى يقظة العرب وانتفاضاتهم الثورية :

غريب كلما قالوا:
غريب قلت ويحكم
« فلسطينى من يافا
أنا « عربى » ابنكم
أنا بيدى هاتين
أنا أطلعت فجركم
جبال النار تعرفنى
وتعرف أنها لكم
وأنى كنت فاديها
وموقدها باسمكم
أنا أرقت نومكم
أنا أطلقت صوتكم
فلا ، لا تقولو لها
حذار فانها الندم .

انه مع تصويره للضياع الذى يعانيه الفلسطينيون المشردون فى الأمصار يدعو الى عدم الهجرة من بقايا الأرض الفلسطينية فيقول فى قصيدة « بلا عنوان » :

كم قائل يقول لى هاجر ، ولن أهاجرا
لن أترك الأرض التى بغيرها لن أكبرا

أما الحنين الى الأرض الضائعة فلا يمكن أن تخفت نغماته حتى تعود الأرض الى ذويها ، ولذلك فهو لن يزال يرسل أحر النغمات وأرقها فى استحضار الماضى والتساؤل عن الحاضر . يقول فى قصيدة « بحيرة النقب » :

أتذكرين الليل .. والهوادج المزينة
غريقة فى الضوء فى خيوطه مستوطنه



حاملة عرائس الفواس المحصنة
والراقصون حولها كل يغني موطنه
ورجفة الدبكة ... والعباءة المثمنة
وأذرع السيوف ... والبيارق الملونه
أتذكرين ؟ ... أم أضاعتنا الليالي المحزنه
فأنت في عيوننا خيرة ومحسنه

ثم يتساءل عن الحاضر :

كيف النخيلات التي على طريق البلد
شامخة أم انحنت حزينة في كمد ألخ ..

بل ان قصيدته في مولد الرسول هي في جوهرها حنين الى الديار السليبة .

ولكن الشاعر المناضل لا يكتفي بالحنين ، بل هو دائما يدعو الى الثورة والكفاح في أسلوبه الحار المتدفق :

قالوا سنفنى ، سنون البؤس تسحقنا
وننهي ، يالهم ضلوا وما شعروا
فكيف سنفنى وفي أعماقنا زخرت
آمالنا الغر والأمجاد والسير

***

نقولها ثورة شعواء نشعلها
عبر الحدود بأمر الله تأتمر
نقولها ما وهت يوما عزائمنا
كلا ، ولا دب فينا اليأس والخور

والشاعر هارون هاشم رشيد معروف بشعره الخطابي الحار الذي يهز المحافل ويثير النفوس . وليس غريبا أن يغلب هذا اللون من الشعر على انتاجه ، فهو يقيم في غزة على خط النار حيث تتوافد الوفود وتكثر المحافل ، ويصبح من الطبيعي — ان لم يكن من الضروري — أن تدوي نغمات هذا اللون من الشعر الذي يحرك الجماهير العريضة . والشاعر ينجح في التعبير بهذا اللون الحماسي نجاحا كبيرا ، وان كانت ملاحقة الأحداث تضطره أحيانا الى التعبير السريع ، مما يهبط بالأداء الشعري عن المستوى الذي ألفناه ، ويجر الشاعر الى شيء من النثرية ، مما يتجلى في قصيدة « رسالة لاجيء فلسطيني » الى مؤتمر القمة العربي الأول ، فنجد فيها مثلا :

لقاؤكم ودعوة اللقاء شيء فاضل
وضيعوها وعلى أبنائها تحاملوا
مهزلة كانت ولن تكرر المهازل

ولكن شعر هارون هاشم رشيد لا يقتصر على هذا اللون الخطابي ، بل انه ليلتقط أحيانا بعض المواقف أو الأحداث أو المشاهد الصغيرة ،

ذات الدلالة الانسانية العميقة ، ليعبر من خلالها عن مختلف المشاعر المتصلة بالقضية المقدسة · فقصيدة « مفتاح باب البيت » لقطة انسانية رائعة تلمس القلب ، وتحرك الشجن ، وهي مهداة « الى كل أخ حمل مفتاح بيته معه فى انتظار العودة وترقب اللقاء » :

معى مفتاح باب البيت أنى سرت أحمله
وعبر مفاوز الأشجان والأحزان أنقله
معى فى الصدر ، عند القلب أضغطه أدلله
حبيبى كم أجاوره أناجيه أغازله
فمفتاحى مفتاح الرؤى ما خاب سائله
أما من هبة للريح تحملنى وتحمله

كذلك قصيدة « الربوة الحزينة » ، تتحدث عن ربوة عند الحدود المصطنعة غرست فيها الراية الصهيونية · انها تناشد أصحاب الوطن الحقيقيين أن يفجروها حتى تتخلص من ذلك الوضع المهين · انه يركز فى تلك اللقطة الصغيرة عار أمه ، ويستمد منها دعوة عميقة مؤثرة للكفاح · تقول الربوة :

تقول يا رفاق فجرونى
وباللظى والنار زودونى
فقد سئمت وقفة السجين
وراء قضبان من الحنين
والراية السوداء فى عيونى
مغروسة كالخنجر المسنون
تهزنى ، تثير بى شجونى

كذلك قصيدة « مسافرون » المهداة الى الذين يسافرون كل عام-من أجل لقمة عيشهم ـ تصوير حار مؤثر لأولئك الفلسطينيين الذين اضطرتهم عواقب النكبة الى أن يسافروا خارج ديارهم التماسا لمعاشهم ، فيجسد بذلك مأساة فلسطين كلها :

أمسافرون ؟
وترعش الأيدى
وتختلج العيون
أمسافرون ؟
لأى أرض فى الوجود تهاجرون
ولأى دنيا دنيانا الحزينة ترحلون
أمسافرون ؟
ويلتقون جميعهم قبل النهار
قبل انبلاج الصبح ، بل يلتئم الكبار مع الصغار
يتوافدون ··· كأنهم طوفان حزن وانتظار
وعلى رصيف الدمع تحتشد الأحاسيس الكبار
قبل وأشواق وولولة وحزن وانفجار
ومشاعر شتى ، تضارب واندفاع وانهيار

والواقفون كأنهم خشب مسندة تدار
ويدق مثل الموت صوت هادر عبر الغبار :
أمسافرون ؟
وترفع الأيدى ، وينطلق القطار ٠

ان الشاعر ينجح فى هذه القصيدة فى اثارة التعـــاطف والمشاركة الوجدانية العميقة مع أهل فلسطين الذين اضطروا الى الهجرة بسبب آثار النكبة ، ولكنه يضعف من أثر القصيدة فى المقطع الأخير حين يقول :

أمسافرون ؟ ولا رفيق سوى التشرد والضـــياع
وسوى أمـان فى الثراء والاغتنـــاء والانتفـــاع
أتسافرون ؟ وكل شــبر فى بلادكم مضـــاع
من أنتمو ؟ ٠٠٠ يتساءل المتسائلون بلا انقطاع
متشردون ؟ ويهزأون كأنكم ســقط المتاع
أمســـافرون ؟ فمن لجـولات التقحم والقراع
من للبلاد ؟ نساؤكم ؟ أطفالكم ٠٠ من للدفاع ؟

فقد ذكر الشاعر من قبل أنهم يسافرون من أجل لقمة العيش ، ثم اذا به فى هذا المقطع الأخير يتهمهم بالسعى للاغتناء والانتفاع ٠ **وقد يكون جميلا وصائبا أن يدعو الشاعر لعدم الهجرة حتى يبقى الرجـال لجولات الكفاح المنتظرة ، وقد يكون واجبا أن ينبه أولئك الذين تعميهم الرغبة فى الكسب عن أن يظل اهتمامهم بالقضية فى المحل الأول ــ ولكن كان ينبغى أن يكون ذلك فى قصيدة مستقلة حتى لا يضعف أثر التعاطف الوجدانى الذى أثاره الموقف الانسانى المؤثر فى الجزء الأول من القصيدة ٠**

وثمة قصائد مثل « رسالة الى أحمد » أو « صرخة من الأرض المحتلة » يستخدم فيها الشاعر نغما هامسا أليفا يعتمد على الافضاء بالمشـــاعر البسيطة الانسانية اليومية الكثير منها بالشعر الحر ٠ وقد ينجح الشاعر كثيرا فى ذلك الأسلوب ، ولكنى أعتقد أن نجاحه فيه ما زال أقل من نجاحه فى الأسلوب الخطابى الكلاسيكى ، وان كنت أعتقد أنه بشىء أكثر من الأناة والاحتفال يستطيع أن يصل فيه الى مرتبة لا تقل عن شـعره الآخر ، فلا نجد قصيدة ضعيفة الصياغة مثل « لا سلام » :

مصممون أن نعود
من أجل أن نحيـا
وأن نجرب الصـعاب
وأن نكون كالذئـاب
كى نطادر الذئـاب

على أن الشاعر هارون هاشم رشيد نغم قوى صادق مناضل ما أحوجنا اليه فى شعرنا المعاصر كافة وفى شعر النكبة بنوع خاص ، نرجو له دوام الثراء والتدفق حتى يهدينا فرحة العودة قريبا ان شاء الله ٠

ملك عبد العزيز





الناشر : مكتبة أطلس - دمشق
٦٩٦ صفحة • ١٧×٢٤ سم

جمال الدين القاسمي

تأليف

ظافر القاسمي

عرض ونقد

محمد عبد الغني حسن

حين اتجه الأستاذ ظافر القاسمي – نقيب المحامين سابقا بدمشق – الى الكتابة عن أبيه العلامة الامام المجتهد جمال الدين القاسمي فأنه كان فى حرج كبير من الأمر . وكان أشد ما يخشاه هذا الابن البار – الذى لا يذكر أباه لأنه رحمه الله توفى وعمر الطفل عام وبضعة أشهر لا تكاد تبلغ الاربعة – أن يحمله حبه لأبيه ، امام الشام فى عصره ، واعجابه به ، على أن تأتى ترجمته له مسرفة فى المبالغة والغلو والمحاباة ، على رأى القائل : من أحب الشيء حابى .

نعم ؛ كان صديقنا ظافر القاسمى على محرجة من الأمر ، لأن فيه من صفات العلماء ، وسمت المحققين المنصفين مايحمله على التحرج الشديد فى أكثر شئونه فى الحياة ، فما باله وهو يكتب عن أبيه الذى بارك الله له فى عمره القصير ، فملأ طباق الأرض العربية علما ، وفقها ، واجتهادا ، وتحديثا ، وتفسيرا ، وترك من المصنفات الجليلة ما يزيد على السبعة والسبعين كتابا ، عدا الكتب العشرة الضائعة التى لم يعثر عليها ، والتى

لا يقطع ولد العلامة الكبير أمله من العثور عليها ولأنها فى مكتبة القاسمى ، التى لم يضع منها شيء ، وانما اضطرب ترتيبها بسبب إنتقالها من مكانها ثلاث مرات ٠٠٠) ٠

ولا أدرى لماذا يتحرج الأستاذ الكبير ظافر القاسمى من الكتابة عن أبيه ومن الترجمة له ، وأنا على ثقة أنه لم يفته أنبـاء الذين ترجموا لآبائهم فى تراث العرب والاسلام ٠ فلم يكن هو أول مترجم لوالده ، ولا أول كاتب لسيرة أبيه فى المكتبة العربية ٠ وحسبه أن يعرف معنا أن شيخ الاسلام الحافظ أحمد بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ قد ترجم لوالده : « على بن محمد بن حجر » فى كتابه « أنباء الغمر بأبناء العمر » ، ثم ذكره فى أعيان المائة الثامنة فى كتابه « الدرر الكامنة » وقد نقل ابن العماد الحنبلى المؤرخ هذه الترجمة فى كتابه المشهور « شذرات الذهب ، فى أخبار من ذهب » فى وفيات سنة ٧٧٧ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها والد ابن حجر ٠

وجاء السخاوى المؤرخ صاحب كتاب « الضوء اللامع ، لأهل القرن التاسع » فترجم لوالده عبد الرحمن بن محمد الملقب بالجلال ، ترجمة على ايجازها تلقى الضوء على كثير من حياته ٠ ولم يتحرج الابن أن يصف والده بما عرفه عنه وشهده منه ، فقال فيه انه كان : (فاضلا ، حسن الفهم ، خيرا دينا ، صادق اللهجة ، وافيا للعهد ، مؤديا للأمانة ، متحريا فى الزكاة ، نصوحا ، متواضعا ، وصولا لرحمه وذوى قرابته وقورا ساكنا محبا فى المعروف ، عديم الشر ، مديما للجماعات ــ سيما الصبح والعشاء ــ كثير التلاوة ، معترفا بالتقصير ، رقيق القلب ، سريع الدمعة ، لونا واحدا ٠٠٠) فأنت ترى هنا ولدا رأى أحسن ما فى أبيه من خلال الخير فجمعها ، ولم يمنعه الحرج من ذكرها ، ولم يخش أن يقال عنه انه ولد يحابى والده ، لأنه يراه بعين الرضى والحب ، وهى عين كليلة عن كل عيب ٠

وجاء « المحبى » صاحب كتاب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » فترجم لوالده : « فضل الله الدمشقى » فى كتابه هذا ترجمة تقرب من عشر صفحات ، وأورد له قدرا لا بأس به من شعره ونثره ، وحكم على نثره بأنه (مفرغ فى قالب السلامة ، خال من وصمة التعقيد وفيه معان عذبة ، والفاظ رائعة ٠٠٠) ٠ ومما يذكر هنا بالمناسبة أن والد «المحبى» كان شاعرا ولكنه نصح ابنه المؤرخ بالابتعاد عن نظم الشعر فان الولد كان قد نظم لأبيه أبياتا فى رسالة أليه ، وهى أول شعر قاله ، وكانت الأبيات على قافية القاف ، فلما قرأها أبوه رد عليه قائلا : (٠٠٠ قرأت الأبيات القافية التى هى باكورة شعرك ، وعنوان نجابتك ان شاء الله تعالى وعلو قدرك : فاياك من الشعر : فانه كاسد السعر ! ويشغل الفكر !)

وجاء مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الجبرتى فترجم لوالده الشيخ حسن الجبرتى ترجمة طويلة فى كتابه المشهور « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » وقد ذكر المؤرخ الابن بعضا من زوجات والده وجواريه ، وخاصة زوجته بنت رمضان شلبى الخشاب ، وكانت ذات ثراء عريض ، ولكنها مع ذلك كانت (بارة بزوجها وله مطيعة ومن جملة برها له ، وطاعتها أنها كانت تشترى له من السرارى الحسان من مالها وتنظمهن بالحلى والملابس ، وتقدمهن ليه ، وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك ٠ وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرارى ويشترى الجوارى ، فلا تتأثر من ذلك ، ولا يحصل عندها مايحصل فى النساء من الغيرة ٠٠٠) ٠

أرأيت اذن كيف كان يكتب علماؤنا عن آبائهم وكيف كانوا لايتزمتون فى ذكر بعض المسائل الخاصة ؟ وكيف كانوا ينعتون آباءهم بكل فضيلة أودعها الله فيهم ٠ لم يروا فى ذلك محاباة ولا مغالاة ولا مجافاة للذوق ٠ الى أن جاء فى عصرنا الحديث الأديب الكاتب حسين شوقى ، يترجم

فيه الولد لوالده. وقد جعل عنوانه : «أبي شوقي» ولم يحاول أن يجلو فيه ناحية من نواحي العظمة والمجد عند شاعر العربية الاكبر ، ولكنه صور فيه أبوة شوقي الرحيمة ، وعطفه الأبوى تصويرا يعد أول كسب في المكتبة العربية لتراجم الأبناء للآباء ... فهو لم يحدثنا عن شوقي شاعرا فحلا مجيدا ، ولكنه حدثنا عن أبيه شوقي أبا عطوفا ، يميل الأبناء في البيت على جوانبه كما يميل كل ابن على أبيه .

ونتقدم في الزمن خطوة قصيرة فنرى الدكتور رءوف سلامه ابن الكاتب المفكر الحر «سلامةموسى» يكتب مقالا في الترجمة لأبيه عنوانه « سلامة موسى ...أبي » وينشره في عدد من أعداد مجلة قافلة الزيت لشهر أغسطس سنة ١٩٦٥ ، ويقول فيه في بساطة وصدق في الحديث عن أبيه : (غيرى يرى سلامة موسى من خلال كتبه الخمسة والاربعين التي خلفها منذ رحل عنا في عام سنة ١٩٥٨ ، أو يذكره مجالسا أو متحدثا ، أو مناقشا . ولكن صورة سلامة موسى الأب والصديق تطغى على مخيلتي تماما . فأنا لا أذكره ألا لابسا «جلابيته» البيضاء ، يقرأ فوق سريره ، أو مرتديا «روبه» الأزرق يتحدث الى زوجته وأولاده ، يرشف معهم أقداح الشاي ...) .

وكتاب « جمال الدين القاسمي وعصره » هو أكبر كتاب في المكتبة العربية ـ قديمها وحديثها كما نعلم ـ يترجم فيه ابن لأبيه ، ويؤرخ فيه ولد لسيرة والده . وما ظنك بكتاب في التراجم والسير تبلغ صفحاته أكثر من سبعمائة صفحة ؟ وكيف اتسع المجال لهذا القدر الهائل من الصفحات ؟

ان الأستاذ المؤلف ظافر القاسمي نعرف فيه القصد في القول ، والاصابة في الهدف دون حاجة الى تكثر من الكلام ، او اسراف في القول . ولهذا كانت هذه الصفحات السبعمائة كلاما في صميم السيرة للامام جمال الدين القاسمي ، وليست اكثارا في الكلام وافاضة فيه . ولعل حياة الامام العلامة القاسمي وسيرته المباركة ذات الطول والعرض هي المسئولة عن هذا الطول في الترجمة ، وأغلب الظن أن صديقنا المؤلف قد اقتصد بعض الاقتصاد في الكلام ، فلو أراد أن يقوم آثار والده التقويم الذي يفي بها لاحتاج الى مجلد آخر مثل هذا المجلد في الضخامة أو مربيا عليه . فان مثل هذه الحياة الخصبة الثرية المبالغة حد الخصوبة والثراء العلمي التي عاشها امام الشام القاسمي جديرة بأن يطول فيها نفس القول ، وأن يخصب فيها الكلام خصبا يكافىء ثراءها ، ويعادل بركتها ونماءها .

ونحن نعرف أن مشافهة الشخص وملاقاته قد تكون مصدرا خصبا من مصادر الترجمة له والتاريخ لحياته . ولكن الله العزيز العليم قدر أن يدعو علامة الشام القاسمي الى رحابه سنة ١٣٣٢هـ ـ سنة ١٩١٤ م وولده ظافر ـ مؤلف هذه السيرة ـ في لفائف المهد لم يتجاوز عمره خمسة عشر شهرا . ومن هنا حرم الأستاذ ظافر القاسمي هذا اللقاء الذي كان يمكن أن يجعل من ترجمته لوالده شيئا آخر...بأن يصب فيه الحياة نابضة ، نبض الحياة بين المترجم والمترجم له . ولكن هل خلت هذه السيرة العظيمة من تلك الحياة أو تلك الحيوية التي كنا ننشدها ؟ وهل جعلنا المؤلف ـ وهو دافق الحيوية ـ نحس في سطر من سطور الكتاب أن هناك نقصا في الحيوية التي يجب أن تسرى دائما في كتب التراجم والسير ؟

لقد استطاع المؤلف أن يصب الحياة في العصر الذي عاش فيه المترجم له ، واستطاع أن يصور لنا نشأته وامامته للناس ، وطريقته في التأليف ، وقراءته للكتب ، ودروسه الخاصة ، ورحلاته ، وحياته الخاصة في طفولته ، وشبابه ، وزواجه ومعاملاته مع الأبوين والاخوة والابناء والزوجة ، والأصدقاء ، والزملاء والناس جميعا .

ولعلك تسأل : كيف استطاع ظافر القاسمي أن يصور أباه على هذا النحو من الدقة التي

لا يكاد يخطئها ملمح من ملامح الصورة ؟ لقد لجأ المؤلف الى أهله والمتصلين بأبيه والى مذكراته يستنطق الأخبار عن المترجم له فهو يستمع الى أمه – أي أم المؤلف وزوج المترجم له – ويروى عنها قائلا : (حدثتني رحمها الله أنها عاشت معه قرابة ربع قرن ، فلم تسمع منه كلمة نابية ، أو ملاحظة ، أو تأنيبا ، أو تهديدا أو وعيدا · ولم تر له عصبية فى أى يوم ، أو أى شأن من الشئون ···) ثم أخذت – رحمها الله – تروى لولدها ظافر حادثة تؤيد هذه القضية ·

على أن الموت الذى طوى كل من يمكن أن يسترشد بهم المؤلف فى التهدى الى تعرف ملامح أبيه الخلقية وسيرته الخاصة ، لم يستطع أن يصد صاحبنا عن المضى فى سبيله ، فقد استهدى بما ذكره الامام جمال الدين القاسمى فى ترجمته الذاتية لسيرة حياته · كما أخذ يجمع أطراف المعرفة من أصحابها ؛ فتارة يلجأ الى ماحدثه به عمه الشيخ قاسم القاسمى شقيق جمال الدين ، وطورا يلجأ الى أمثال الشيخ حامد التقى ليحكى له ما فعله الامام من عرفان بالشكر لوالده حين اشترى لمكتبته نسخة من شرح كتاب « أحياء علوم الدين » للغزالى ···

والحق أن الأستاذ ظافر القاسمى قد وسعت مصادره عن سيرة أبيه جمال الدين كل شىء ·· فقد جعل السيرة الذاتية التى تركها والده بخطه الفارسى الأنيق أول مصادره فى الترجمة له · ثم ثنى ذلك بما كان يسمعه ويتلقفه من أحاديث وقصص عن أبيه ، يأخذها من أفواه أمه واخوته وأعمامه ، وجعل ثالث المصادر محافظ تلاميذ الامام وأصدقاؤه عنه فى دروسه الخاصة والعامة فسجل من هذه المحفوظات قدرا لا بأس به ، مما أدرك أن فى نشره فائدة للقراء · أما مؤلفات الامام جمال الدين القاسمى فقد كانت رابع المصادر التى استهدى المؤلف بها · والحق أنها لكثرتها وتنوعها تصور الرجل فى عقله وعاطفته وتفكيره وثقافته واتجاهاته ومذهبه فى الاصلاح ومزاجه ·

واذا كانت الكتب التى ألفها القاسمى هى أحد مصادر ترجمته ، فأن الكتب التى اشتملت عليها مكتبته – ما بين مخطوط ومطبوع – تشكل مصدرا خامسا للترجمة له · فهى تدل على مشربه فى القراءة ، ومتجهة فى التفكير ، وهى بما كان يوشى به هوامشها من تعليقات ونقود ومراجعات وملاحظات ووقفات تدل على عقليته تمام الدلالة، بل تصور ثقافته العامة أصدق تصوير ·

ولقد كان الامام جمال الدين يلجأ بعض الحين الى تدوين بعض المفكرات اليومية ، التى تضم بعض أخبار الرجال والتعليق على الحوادث التى تغدو بها الأيام وتروح · ولقد أفاد المؤلف من مفكرات والده ، فأورد منها فى فصل خاص ستا وثمانين مفكرة تدل على خلق الرجل وتصور نفسه على حقيقتها ، بما طبع عليه من التنظيم العقلى والترتيب الذى يقول فيه : (فضيلة تحمل صاحبها على العمل بما رتبه لنفسه ، والاهتمام وهى تنشط النفوس ، وتريح البال ، ويكون صاحبها مستجمعا لفكرته ، محافظا على وقته ···) ·

ولم يكتف المؤلف بهذه المصادر الستة للترجمة لوالده الامام القاسمى ، ولكنه أضاف اليها مصدرا سابقا ، وهو ماكتب عن القاسمى بعد وفاته من شعر ونثر · فقد ظل منذ قرابة ثلاثين عامة يجمع هذه الآثار بارشاد عمه الشيخ قاسم ·

على أن الرسائل التى دارت بين الامام جمال الدين القاسمى وعلماء عصره ومصلحيه ورواد الفكر الاسلامى فيه كانت مصدرا ثامنا لم يذكره المؤلف بالاحصاء والعد ، ولكنه ذكره بالتسجيل والتدوين والاستئناس به فى موضع الاستشهاد كالرسائل الواردة اليه من الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الرزاق البيطار ، والأمير شكيب ارسلان ، والسيد رشيد رضا ، والشيخ طاهر الجزائرى ، وأحمد تيمور باشا ، وأحمد الشنقيطى ، ورفيق العظم ، ومحمد كرد على ، وعباس عبد البهاء زعيم البهائيين فى

وقته ، والمستشرق لويس ماسينيون وغيرهم ، وكالرسائل المرسلة منه الى الشيخ محمد عبده وأبيه القاسمى ، وأخيه الشيخ قاسم ، والشيخ محمد ناصيف وغيرهم •

ولقد انجلت الصورة التى رسمها المؤلف لوالده الامام جمال الدين القاسمى عن شخصية اسلاميه عربية اصلاحية أنبتتها أرض الشام فى القرن الماضى حتى منتصف العقد الثانى من القرن العشرين • فلم يكن الرجل فقيها ولا مفسرا ولا عالما دينيا بالمفهوم الضيق المحدود ، ولكنه كان رجلا مصلحا ، مجددا ، واسع الأفق ، حر التفكير الى ما سبق به زمانه بعشرات من السنين •

لقد كان يرى عزة المسلمين فى الأخذ بأسباب القوة المادية والعسكرية التى افتقدوها بأمرة من الأمر فأفقدتهم كيانهم • ونراه فى معرض تفسيره لقوله تعالى : « وأعدو لهم ما استطعتم من قوة » فى تفسيره العظيم المسمى « محاسن التأويل » (١) يقول بعبارته المشرقة القوية : (•• وأما اليوم ، فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا الى النعيم والترف ، فأهملوا فرضا من فروض الكفاية ، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض • ولذا تعانى اليوم من غصته ما تعانى • وكيف لا يطمع العدو بالممالك الاسلامية ، ولا ترى فيها معامل للاسلحة وذخائر الحرب ، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو ؟ أما آن لها أن تنتبه من غفلتها ، وتنشىء معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية ؟ فلقد القى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درسا يجب أن تتدبره وتتلافى ما فطرت به ، قبل أن يداهم مابقى منها بخيله ورجله ، فيقضى ـ والعياذ بالله ـ على الاسلام وممالك المسلمين ، لاستعمار الأمصار ، واستبعاد الأحرار ، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار) •

(١) طبع هذا التفسير العظيم في مطبعة دار احياء الكتب العربية ـ عيس الحلبى بمصر ـ في بضعة عشر جزءا وصدر لأول مرة منذ بضع سنوات

ولم يكن القاسمى شيخا متزمتا ولا جامدا ، فهو مجدد فى كل شىء ، حتى فى الاصلاح الزراعى ••• فيشير فى بعض كتبه بضرورة استعمال الآلات الميكانيكية فى الحرث والحصاد ، وبضرورة مكافحة الأمراض والحشرات والآفات الزراعية على ضوء العلوم التجريبية الحديثة • ويوازن فى بعض مذكراته بين مايفعله الغربيون لاصلاح أراضيهم واستثمار أموالهم وبين مانفعله نحن من التواكل ، ويتفطر قلبه حسرات حين يزور بستانا من بساتين الشام تولت زراعته شركة أجنبية فيقول : (•• فاذا به بستان عجيب مدهش ، أخذ من القرية معظمها ، تأفقت فيه الشركة الفرنسوية التى جددته بالغ التأنق • فترى ثماره غريبة ، وأزهاره عجيبة وأشجاره منوعة ، وهندسة ترتيبه مبهجة . قابلت بين اعتناء الجماعة الأجانب فيما يثمر لهم أموالهم ويحسن لهم دنياهم ، وبين ما عليه جماعتنا من التأخر فرأيت الفرق ما بين الثريا والثرى••• وكان رحمه الله من أوائل الداعين الى الاخذ بالمخترعات الأوربية الحديثة ، ويعجب من الذين يقفون بالدين حائلا بين الأمة وبين الاصلاح المادى وتطوير المجتمع فيقول : (ان ما ظهر من التلغراف هو قطرة من بحر ما سيظهر فى العصور التالية من المكتشفات والمخترعات «ويخلق مالا تعلمون» مما فيه مرتفق للناس ، ومنتفع لهم ، وخدمة لعامة طبقاتهم ••• فاذا لم تطبق أمورها على الأصول المقررة بالاستنباط أو القياس ، فهل نجمد فى الدين ، ونخالف طريقة المتقدمين والمتأخرين ، ونضيق ما وسعه الله من الفهم والاستنباط أبد الآبدين ؟)

ولقد بلغ من سعة أفق القاسمى وتحرر فكره أنه خالف بعض فقهاء المسلمين الذين يقولون فى كثير من الأحكام الشرعية انها « تعبدية لا يعقل معناها » وأفتى فى صراحة وشجاعة وفهم عميق أن هذا الكلام غير صواب ، لما فيه من الغفلة عن التمعن فى سر التشريع ، وجهل أسلوب التنزيل

حيث أنه يتبع كل حكم بسره وحكمته ٠ فان القول « بالتعبدية » فى الأحكام فيه تقليد غير بصير للمتقدمين ، وفيه حجر على العقول والافهام أن تنظر وتتأمل ، وتتفكر وتتدبر ٠ وذلك مناف لقاعدة اعمال الفكر لاستنباط المعانى المأمور به العلماء ٠٠٠

وهذه الشجاعة النادرة فى قولة الحق عند الامام جمال الدين القاسمى هى التى ساقته الى أن يتناول بالنقد الجرىء كل ما لم يكن يعجبه من الأمور فى الشام وفى مصر على السواء ٠ فقد اتفق فى أثناء زيارته لمصر سنة ١٩٠٤ أن احتفل بعيد جلوس الخديو عباس على نحو فيه كثير من مظاهر الزينة التى تكلف الدولة مالا كثيرا ، فعقب على هذا بقوله فى وصف رحلته: (ويا ليت هذه المبالغ الطائلة المصروفة فى مبتدع هذا العمل ، كانت تصرف لجهة نافعة !)

وبمناسبة رحلات الامام القاسمى يلفت نظرنا روح التحقيق التى كانت تلازمه فى الرحلة، كما كانت تلازمه فى البحث والدرس والتأليف ٠ ففى رحلة الى بيت المقدس يقوده رفيقه ودليله الى المدرسة الصلاحية ، فيخبره قيمها بأن هذه المدرسة كانت قبل الفتح الصلاحى كنيسة ، فيرتاب فى هذا ، ولا يطمئن الا حين يرجع الى كتاب « الروضتين » للمؤرخ أبى شامة فيجد فيه مصداق ذلك الكلام !!

وهكذا ترى أن التحقيق يجره الى الكتب و « الكتاب » الذى كان شديد الايمان بتأثيره فى النفوس ، فيقول فى احدى رسائله الى الشيخ محمد نصيف : (الكتاب خير من ألف داعية وخطيب ، لأنه يبقى أثره ويأخذه الموافق والمخالف ٠٠٠) ومن هنا كانت عنايته بمكتبته وبفهارس كتبها التى كان يضعها بنفسه على أغلفتها تسهيلا للرجوع اليها ٠ كما كانت عنايته بالتعليق عليها بما تسعفه به الفكرة الطارئة ، أو التحقيق الاكيد ٠ وما كان القاسمى يضن بمذخور التلاد والطراف على شراء كتاب يضمه الى مكتبته ويوسع بقراءته دائرة ثقافته ٠ فهو يشترى الكتاب من أى مكان ٠ وفى خلال رحلة الى مصر يصرح لنا بقوله : (وضحوة السبت ٢١ ش – أى شوال – تجولت فى حوانيت باعة الكتب ، واشتريت كثيرا مما راقنى ، ثم راجعت فى كتبخانة الأزهر من أجزاء تاريخ ابن عساكر الجزء الذى فيه ترجمة عمرو بن العاص) ٠

ولن نفرغ من قضية الحرية الفكرية عند الامام جمال الدين القاسمى قبل أن ننتهى الى رأيه فى المرأة ٠ وقد أبدى هذا الرأى فى تفسيره العظيم فى معرض الكلام على قوله تعالى : « عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ، مسلمات مؤمنات ، قانتات تائبات عابدات سائحات ٠٠ » فوقف عند كلمة «سائحات» قائلا : (ذهب كثير من المفسرين الى أن المراد من «سائحات» صائمات أو مهاجرات ٠ وقد قدمنا فى سورة التوبة فى تفسير « السائحون » أن الحق فيه هو المعنى الحقيقى ، لعدم ما يمنع منه ٠ ولا يصار الى المجاز الا لمانع ٠ ولهذا قال بعض المحققين : انه يستفاد من هذه الآية مشروعية السياحة للنساء ، كما هى كذلك للرجال) ثم قال : (كان الذى دعا البعض لتفسير السائحات بالصائمات أو بخصوص المهاجرات ، تصوره أن السياحة فى البلاد لا تناسب طبيعة النساء المأمورات بالحجاب، وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد ، أو كأن الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء ، أو كأنهن لم يخلقن الا لسجون البيوت التى ربما تكون أنكى من أعمق سجون الجناة ، أو كأنهن لم يخلق لهن من هذه الدنيا الرحيبة سوى بيت واحد ٠)

أرأيت هذا الأفق الواسع فى تناول القضايا التى قد يقف عندها الجامدون والمتزمتون عند حد لا يتعدونه لضيق عطفهم ، وانحصار أفقهم ٠ فهو يرفض تفسير « السائحات » بالصائمات أو المهاجرات ، ويجعل اللفظ على حقيقته حرصا منه على أن يعطى المرأة ما للرجل من حق السياحة فى أرض الله الواسعة ، وهو حق لا يجوز فى نظره الواسع أن يقف على الرجال وحدهم دون النساء ٠

وبعد ! فما رأيت ولدا عرض والده على حقيقته

كما فعل الأستاذ ظافر القاسمي في ترجمته لوالده المجدد المصلح الامام جمال الدين القاسمي ٠ والحق أن تحرج المؤلف من الترجمة لوالده وتهيبه الموقف لم يكن له محل ، بعد أن أثبت بحيدته التامة ، وانصافه ، وسلامة أحكامه ، وصحة استنباطاته ، وتجرده من نوازع الوفاء البنوى والعاطفة نحو الأبوة – أنه جدير بأن يكون أمينا على كتابة السيرة لوالده ، في غير محاباة ولا مغالاة ولا غيرهما مما كان يخشى أن يقع فيه ٠

ولقد أنصت صديقنا المحامى الأديب العالم الأستاذ ظافر القاسمى حين تولى الترجمة لأبيه وأن يحسنها، ويبلغ فيها الغاية ، قبل أن يتولاها غيره ممن لم تتح لهم الظروف هذه الثروة الطيبة من المصادر ٠ وما كان لأحد غير ظافر القاسمى أن يجزى فى هذا المهم الذى هو به كفء ، وعليه قدير ٠٠

أنا أعرف فى الأستاذ ظافر القاسمى التأنق فى كل ما يقوم به من أمر ، فهو أنيق حتى فى أمر نفسه ولبسه ! ومن هنا كان كتابه عن أبيه – كبقية كتبه (1) التى أخرجها أخيرا – أنيقا فى اخراجه على الرغم من ضخامة هيكله ٠٠٠ ولكن على الرغم من هذا وقعت فى الكتاب أمور كنت أحب أن يتجرد منها ٠

ففى صفحة ٤٦ جاءت الآية رقم١٤٧ من سورة النساء هكذا : (لا يحب الله الجهر بالسوء الا من ظلم) ٠ وصوابها : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم) ٠

وفى صفحة ٧٣ وقعت اللام فى جواب « ان » الشرطية المنفية ، ولا تقع اللام الا فى جواب لو ، أو لولا على ما فصله العلماء فى كتب النحو ٠

وفى صفحة ٢٦٠ جاءت هذه الجملة : (وهو يبلغ ثلاث وعشرون صفحة) وهو سهو لا يخفى على فطنة المؤلف وبصره العظيم بعلم النحو وتمكنه فيه ٠

وفى صفحة ٤٥٥ يدون المؤلف بيتا سجله والده فى مذكراته اليومية ، ويعتذر المؤلف من عدم معرفته لقائله ٠٠٠ والبيت هو :

وجرم جره سفهاء قوم
وحل بغير جارمه العذاب

وهو أشهر من أن يعتذر فيه بعدم معرفة قائله، فهو للمتنبى ، ومن القصيدة التى مطلعها :

بغيرك راعيا عبث الذئاب
وغيرك صارما ثلم الضراب

ولا شك أن أخانا ظافرا – وهو الحافظ لعيون الشعر العربى – قد قرأ هذه القصيدة لأبى الطيب المتنبى ، وأن هذا البيت قد مر عليه ، ولكن الزمان أنساه أياه ٠

أما العالم الكويتى الذى ذكره المؤلف باسم عبد العزيز بن أحمد الرشيد البداح ، فقد كان يكفى أن يوصف بأنه مؤرخ الكويت فى عصرنا هذا ، وهو صاحب كتاب « تاريخ الكويت » الذى يعد أوثق مصادرنا عن هذا القطر العربى المضياف ٠ وقد توفى سنة١٩٣٨م ، أى بعد وفاة الامام القاسمى بأربعة وعشرين عاما ٠

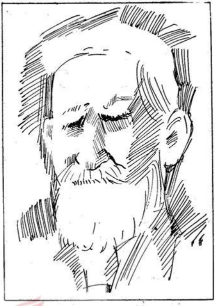
أما وضع شدة على الياء من لفظة « سنيها » ص ١٢ و « سنى الفقر » ص ٣٥ فهى من أخطاء المطبعة التى أنزه المؤلف الفاضل أن يقع فيها ، فان الياء فيها هى ياء الالحاق بجمع المذكر السالم، ولا يجوز تشديدها بحال من الاحوال ٠

ولكن ماذا تبلغ هذه المآخذ الصغيرة من قيمة الجهد العظيم الذى بذل فى هذا الكتاب الجليل ؟

محمد عبد الغنى حسن

---

(1) من هذه الكتب : كتاب « مكتب عنبر وهو يصور حياة المدارس والثقافة والمجتمع الشامى » وكتاب « فصول فى اللغة والأدب » ٠ وكتاب « وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ – ١٩٢٧ » وفيه من الاسرار ما لا يحتويه كتاب آخر ٠



برنارد شو

عرض ونقد
دكتور أحمد حمدي محمود

جورج برنارد شو من أصحاب الحظوة عند قراء اللغة العربية • فلقد ترجمت أغلب كتبه أكثر من مرة ، وظهرت عدة مؤلفات عنه ، كما اعتادت الجرائد والمجلات أن تختار ضمن طرائفها بعض أقواله المأثورة ونوادره الصحيحة والمنتحلة •• واليوم وبعد أن ظهرت هذه الدراسة المستفيضة عن برنارد شو يصح القول بأن شو قد أصبح من بين أعظم من نالوا أعظم قدر من التقدير من مفكري الغرب •

والكتابة عن شو أمر عسير وهي ليست سهلة كما بدت للكثيرين ممن تعلقوا ببعض أفكاره أو الذين أعجبوا ببعض نوادره • فشو لم يكن مجرد داعية أو مروج لبعض الافكار بل كان لسان حال قرن من أخطر القرون التي عاشتها البشرية •• فقد عاش في هذه الحقبة (١٨٥٦ – ١٩٥٠) داروين وماركس وفرويد واينشتين وغيرهم •

وكان أخطر ما تمخض عن هذه الفترة هو القاء القنبلة الذرية ايذانا ببدء عصر الذرة والفضاء وهذه الاحداث التي مرت في سرعة خاطفة لم يعرفها الناس من قبل • وهذه الافكار المتضاربة التي كانت شديدة الاتصال بحاجات الناس العملية (فكلها كانت ترمي الى احداث انقلاب ثوري في عقول البشر بعكس الفلسفات النظرية السابقة لهذا العهد والتي قنعت بالتأمل النظري البحت) هي التي تفاعلت في عقل برنارد شو ، الذي لم يقنع باختيار مشكلة واحدة أو قضية واحدة منها ، ولكنه أقحم نفسه في كل كبيرة وصغيرة من قضايا عصره • وقام بالرباط بين السياسة والاقتصاد والاجتماع والميتافزيقا والفن والموسيقى والطب والدين والمنطق – بشيء من التعسف في أغلب الاحيان • فهو لا يعترف كجميع المثقفين الاصلاء بالفواصل المصطنعة التي

تأليف

أحمد خاكى

تاريخ

حياته وأدبه

قامت فى العصر الحديث بين العلوم الجزئية المختلفة ، والتى كثيرا ما أدت الى سطحية الفكرة وجزئيتها ·

هذه الصعوبة تتطلب ممن يكتب عن برنارد شو سعة اطلاع مماثلة · وسيبدو شو على الفور لكل من لم يتمتع بمثل هذه الصفة بهلوانا يجيد المراوغة ، ويعجز عن الثبات على أية فكرة محددة ·

وتتصل بهذه الصعوبة التى ذكرناها صعوبة أخرى هى طول الحقبة التى عاشها شو · وقد نتصور أحيانا أنه اهتدى الى مذاهبه الفكرية المختلفة فى السنوات الاولى من شبابه بعد جهد كبير واطلاع وافر ، ثم توقف بعد ذلك · وربما توهمنا أن كل ما كتبه بعد ذلك لم يكن أكثر من تكرار لأقواله السابقة · ولكن شو فى الحق لم يثبت على رأى واحد فى أكثر المشكلات التى بحثها · فهو من المؤمنين بالتطور عمليا وليس نظريا فحسب · وهو يؤمن بحدوث محاولات وأخطاء وبعدم وجود حقيقة قصوى · ولذا فمن واجب أى مؤرخ لفكره أن يفرق بين آرائه التى نادى بها فى شبابه عندما كان يبحث عن الشهرة بأى ثمن فى الفترة الشاقة من حياته التى تردد فيها بين كتابة القصة وكتابة مقالات النقد والمسرحية ، وآرائه بعد أن اطمأن الى الشهرة والخلود ، ثم ما ظهر له من آراء بعد ذلك عندما أصبح من الاثرياء الناقمين على مصلحة الضرائب·

وكل من يبحث عن شو الحقيقى سيحار بين كل هذه الشخصيات ، وسيشعر بعدم جدوى البحث عن مفتاح لهذه الشخصية · وليس من شك فى أن أفضل مخرج من هذا المأزق هو الربط بين شخصية شو وشخصية العصر الذى عاش فيه· فلقد حرص شو دائما على أن يشتهر لسان حال

لعصره أو « مستشارا فكريا » له ٠ ونحن اذا راجعنا أفكاره، لن نصادف بينها أية فكرة أصيلة واحدة لم تكن معروفة فى هذا العهد ٠ فهو عندما يتحدث عن التطـور الخلاق يذكرنا بالفلسفة الالمانية ابتداء من هردر ، وبفلاسـفة فرنسيين كلامارك وبرجسون ، كما يذكرنا ببعض الادباء الانجليز كصمويل بطلر ، وبالانتقادات الكثيرة التى وجهت لداروين فى هذا العهد ٠ واذا تحدث عن الاشتراكية ، أدركنا على الفور تأثير آل وب والامريكى هنـرى جورج والفرنسى لاسال ، والحيرة بين ماركس ودعاة الحرية من المفكرين الانجليز كآدم سميث وجـون ستوارت ميل وبنتام ٠ واذا قرأنا له فى الموسيقى ، تذكرنا الشتائم التى تبادلها فى عصره ٠ معسكر فاجنر ومعسكر برامز ٠

فشو اذن يمثل أفضل نموذج للمثقف الذى أحسن استيعاب أفكار عصره ، وان كان يمثل الى جانب ذلك أفضل تمثيل الداعية الى ترويج فكرة معينة ٠ فقد عرف شـو الجماهير وعرف (التكتيكات) التى تصلح لترويضها ، وعرف كيف يسخـر أى نوع من الفن للتعبير عن أفكاره ٠

وثمة صعوبة أخرى ، ولعلها من الصعوبات العامة التى تواجه كل من يحاول الكشف عن أفكار أى اديب ، أو كاتب مسرحى بوجه خاص، **وهى تعذر التفرقة بين أفكار الكاتب والافكار التى ينسبها لبعض شخوصه ٠ ولقد أحس برنارد شو بهذا الخطر فلجأ الى عدة سبل أبعدته احيانا عن روح الفن الحقة ٠ فكتب التمهيدات والارشادات المطولة ، وحول أبطال رواياته الى وعاظ ٠ ولما كانت شخصيات شـو كلها مولعة بالسخرية لذا عمد شـو الى اختيار نوعين من السخرية ٠ نوع منها للشخصيات التى يرضى عنها ، والنوع الآخر للشخصيات التى يبغضها وينفر منها ٠**



برنارد شو

ولقد شعر الكاتب بكل هـذه الصعوبات ، وعرف كيف يتغلب عليها ، فقسم كتابه الى قسمين كبيرين ، وجعل القسم الاول منه خاصا بتاريخ حياته الفكرى ، وجعل القسم الثانى منه خاصا بأفكاره وآرائه وفلسفته ٠ وأنت تشعر عندما تستعرض عناوين فصول القسم الاول بمدى شعور الكاتب بالتشابك بين أحداث حياة شـو وحياة العصر الذى كان يعيش فيه ٠٠ فالكاتب يربط بين متاعب شو العائلية ، واحساسه بالفقر ، وأول محاولات له لدراسة الاشتراكية من مصادرها المختلفة ، ثم اشتراكه فى جماعة الفابيين بعد ذلك للدعوة لنشر مبادئهم ٠

وينجح الكاتب فى اشعارك بأن الغاية التى ساقت شو الى طرق أبواب المسرح ، واقتداءه بابسن بوجه خاص كانت الدعوة للاشتراكية ٠ فابسن كان صـاحب مذهب فكرى ، ومن ثم تركزت أكثر رواياته حول قضـايا محـددة كمحاربة النفاق الاجتماعى ومحاولة تحرير المرأة

ولكن شو لم يقنع بالكلام عن الاشـتراكية ، ولذا اتجه فى المرحلة الثانية من حيـاته التى بدأت برواية « الانسان والانسان الاسمى » الى اختيار موضوعات فلسفية واجتماعية متعددة ، عبر فيها عن عقيدته الفلسفية ٠

ولا شـك أن القارىء لا يضـيق ببعض الاستطرادات التى جاءت فى هذا السرد التاريخى كالكلام عن الفلسفة الاقتصادية فى القرن التاسع عشر أو عن تاريخ المسرح الاوربى ، أو الديالكتيك ٠٠ فالكاتب كان مضطرا فى أغلب الظن الى ذلك

لكي يوضح شدة ارتباط شو بعصره وأفكاره • وآثر الكاتب الاسهاب في هذه الناحية ، وشرح أغلب المصطلحات ، فقد خشي شعور القارىء بأي غموض يرغمه على التوقف •

وبعد أن فرغ الكاتب من بيان أحداث حياة شو وأحداث هذا القرن الخصيب ، ونجح في اظهار ما بينهما من تأثير متبادل ، انتقل الى الكتاب الثاني ، وفيه عرض آراء شو المختلفة في نقد المجتمع والاقتصاد والسياسة والدين والفلسفة والعلم والمسرح • فكأنه أراد أن يعرفنا بأنه برغم ما في حياة برنارد شو من تغيرات وتقلبات ، الا أننا نستطيع ادراك بعض الملامح الثابتة نسبيا في أفكاره ، وهي التي أصبح يعرف بها عادة •• ولكن القارىء مطالب بأن ينظر الى هذه الافكار التي تبدو ثابتة ظاهريا نظرة دينامية • فعليه ألا ينسى على الدوام الظروف والمناسبات التي دعت اليها ، أي عليه أن يراجع دائما الكتاب الاول •

لا أظنني أستطيع تلخيص مثل هذا العرض المركز ، فأنا لا أتصور امكان حذف أية كلمة وضعها المؤلف بعد تمعن وتدقيق ، ولو انني حاولت تحليل كل ما قرأت لاحتجت الى كتاب آخر • ولذا سأكتفي باختيار بعض الخواطر التي نبهتني اليها عدة فقرات وعبارات في الكتاب • وقليل من الكتب هو الذي يدفع القارىء الى مراجعة أفكاره وتأملها •

وأول فقرة استرعت انتباهي كانت في ص ٣٨ عند الكلام عن أسباب اختيار برنارد شو الكتابة في الرواية عند قدومه الى لندن • وكانت الاجابة هي القول بأن العصر كان عصر الرواية ، ولم يكن عصر المسرحية • وفي ظني أن وصف هذا العصر بأنه ليس عصر مسرحية قد يعني تناسي عدة أسماء لامعة من الذين قاموا بدور حاسم في كتابة المسرحية كهنريك ابسن وستروندبرج وألكسندر دوماس الصغير ، وفيكتوريان ساردو وتشيكوف وجيرهارت هاوبتمان وموريس ميترلنك وبيرندللو • وكل أصحاب هذه الاسماء كانوا معاصرين لبرناردشو أو سبقوه بسنوات قليلة • هذا يعني أن رواج القصصي في القرن التاسع عشر لم يؤثر البتة على الاهتمام بالمسرح ، ويدلنا كذلك على وجودنهضة مسرحية معاصرة لشو ، تأثره بابسن ، ومقالاته النقدية التي كتبها في نقد المسرح البريطاني ، ونشرها في أجزاء ثلاثة •

على انني استدرك فأذكر أن بريطانيا كانت متخلفة في نهضتها المسرحية بالفعل عن أغلب دول أوربا • فلم يظهر فيها بعد شكسبير كاتب مسرحي واحد مماثل له في قدرته • وكل الاسماء التي تذكرها لنا المراجع ، لا يمكن أن تقارن بشكسبير ، وكان الناس يفضلون اعادة مشاهدة روايات شكسبير على مشاهدة أية روايات جديدة ولعل النهضة المسرحية في انجلترا قد تركزت في اجادة التمثيل والاخراج أكثر من اعتمادها على ظهور مؤلفين مسرحيين جدد • وربما فسرت لنا هذه الدعوة الحالة السر في ثورة شوالقاسية على شكسبير • وستتبين لنا هذه القسوة اذا رجعنا الى العبارة التي استشهد بها الكاتب في ص ٨٩ من الكتاب •

« انه لتمر بي لحظات أسائل فيها نفسي وأنا يائس : لم نزلت بالمسرح الانجليزي لعنة هذا الرجل الخالد الذي انتحل قصص الآخرين وأفكارهم ، وكيف فسد المسرح الانجليزي بما أتى من بهرج القول ومن بديهات لا تطاق ، ومن تبسيطه لمشكلات الحياة الدقيقة وانزالها منزلة الشيء العادي ؟ ثم هذا الجمود المدهش الذي لا يوحي الى الانسان بشيء •• واذا استثنينا هومر ، فانني لا أحتقر كاتبا شهيرا واحدا – حتى ولا سير ولتر ساوت – كما احتقر شكسبير حين أقيس عقليته بعقليتي ، وينفد صبري بعض أحيان فأجد أنه قد يخفف عني بعض الشيء اذا أنا حضرت مقبرته ، وأخرجت منها جثته ، ورجمته بالحجارة ، فأنا أعلم أنه لا هو ولا عابدوه يستطيعون أن يفهموا معنى التحقير بغير هذا الشكل » •

ومما يدلنا على أن شو لم يكن جادا في مهاجمته لشكسبير ، وانه لجأ الى هذه الوسيلة حتى يستطيع تحطيم الوثن الذي عبده الانجليز طويلا (وما زالوا يعبدونه حتى الآن) ، ومن ثم يكون قادرا على تحقيق الشهرة ، العبارات الاخيرة التي

نشرها قبل وفاته وفيها يكاد يعتذر عن تجريحه لشكسبير .

فهو يرد على ما ذكره أحد النقاد بأنه لم يقصد اطلاقا القول بأن رواياته أفضل من روايات شكسبير . فهو يعترف بأن أحدا لن يستطيع كتابة مسرحية أفضل من الملك لير لشكسبير أو كتابة أوبرا مماثلة لأوبرا دون جوفاني لموتسارت .. وباختصار لقد اهتدى بالفعل فى الفنون كافة الى ذروة الابداع الفنى . وما يقصده شو بالتقدم ليس تقدما فنيا على بعض الروائع التى أبدعها السابقون له ، ولكنه يقصد أن ما حدث من تقدم علمى ، وبخاصة فى التاريخ بعد الكشوف العظيمة التى جاء بها على سبيل المثال المؤرخ الالمانى مومسن والمؤرخ الايطالى فيريرو وقد ساعد على حدوث تقدم فى المضمون الفنى . وكلام شو بديهى ، ويختلف عن لهجة الاشمئزاز الشنيع المغرض الذى بدا فى كتاباته الاولى ، والتى قصد بها الانتقاص من شكسبير حتى يسهل ارتفاع شو الى قمة المجد (ولعل موقف العقاد من شوقى فى أدبنا الحديث كان موقفا مماثلا)

أما السر فى اشتغال شو بكتابة القصص قبل كتابة المسرحيات فيرجع الى أنه كان فى مرحلة تعييش أو (تلطيش) ، اذ قام فى هذه الفترة بتجربة كتابة المقال النقدى والقصة ، ثم شعر بعد ذلك بوجود علاقة بين الندوات السياسية (والتى شهد له الجميع بالبراعة فيها) والمسرحية . ومن ثم عقد العزم على الفوز على الاتجاه الى كتابة المسرحيات ، ولكنه أدرك بفطنته العملية ضرورة هدم شكسبير حتى يسترعى انتباه الناس .

وأنتقل بعد ذلك الى مسألة أخرى صادفت فيها رأيين للكاتب . هذه المسألة تمس قضية هامة ، وهى أثر كاتب عظيم كبرنارد شو فى عصره ، وهل استطاع أن يحقق كل الغايات التى كان يرنو اليها فى شبابه .

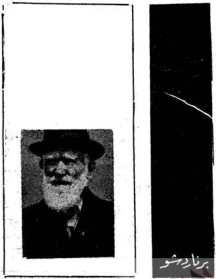
وأول رأى للكاتب قد ذكره فى ص ١٣١ عندما قال : « اذا رأيت أن انجلترة قد أدخلت الاشتراكية الديمقراطية فى اقتصادها وقد خلت حكومتها فيما كان يسمى حرية الفرد وحرية التجارة وأممت بعض موارد الانتاج ووسائل النقل ، وأممت الخدمات الطبية ، ورفعت سن الالزام الى السادسة عشر ، وزادت اتحادات العمال قوة حتى خرج منها حزب العمال نفسه ، وزادت فيها الحركات التعاونية ، فاعلم أن هذه الاشتراكية الديمقراطية لم تكن لتنمو فى تلك البلاد الا على أساس من الفكر الاشتراكى الذى أعمله الفابيون ومنهم برنارد شو .

وفى موضع آخر (٢٣٧) يقول الكاتب : « ولكن هل ترى أنه قد اكتمل له النجاح وأنه استطاع أن يعدل بالعلم عن الحرب أو استطاع أن يطبق آراءه جميعا فى الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد ، كان برنارد شو عبقريا مفكرا ، وكان كالعباقرة المفكرين من قبله يقرأ كثيرا ، ولكن الظروف العالمية لم تكن تسمح لأفكاره أن تطبق وأنا شخصيا أميل الى تأييد الرأى الأخير .

« فارى أن شو لم يحدث أثرا سياسيا يذكر عند الانجليز وأن الناس كما ذكر الكاتب ص ٢٣٩ كانوا ينعمون عند قراءته بالجدل العقل . وهم يقبلون على مثل هذا الجدل اقبال الصبيان على الروايات الجنسية » (ولعل هذا الرأى هو رأى أولدس هكسلى) اذ كانوا يقولون كما ذكر الكاتب فى موضع آخر « ... أوه انه برنارد شو » .

فاذا عرفنا أن اشتراكية شو كانت ترمى الى المساواة فى الدخل ، أدركنا صعوبة القول بأن شو هو المسئول عن كل التطورات التى حدثت فى الاقتصاد والمجتمع الانجليزى . ولعل صاحب الفضل الحقيقى هو الحربان العالميتان اللتان خاضتهما انجلترا ، واضطرار المسئولين الى زيادة ضرائب الدخل والى اللجوء الى التجنيد الاجبارى . وحدثت مساواة بدت بعض مظاهرها فى طوابير الحصول على « التموين » وفى الحياة داخل المعسكرات المختلفة والمخابىء .

هذا يعنى أن صاحب الفضل الأول فى هذا التغير الاجتماعى هو ونستون تشرشل عدو الاشتراكية ، وليس برنارد شو الاشتراكى الصميم . **فنحن من أسف نبالغ دائما فى الاشادة بدور المفكرين فى تغيير المجتمع ، وان كانت الاحداث قد برهنت من عهد أفلاطون الى الآن على انفصال المفكرين عن مجتمعاتهم ، أو تأثر المجتمعات**



برناردشو

بأفكار المفكرين بعد مسخها او قلبها راسا على عقب ، كما حدث فى عهد الثورة الفرنسية . ولعل شو قد أحس بخيبة أمل مريرة عندما سمع أنباء القاء القنبلة الذرية على هيروشيما قبل وفاته بما لا يزيد عن خمس سنوات .

وتوقفت أيضا عند عبارة هامة أعتقد أنها من العبارات التى تعرضت لظلم بين عند أغلب المفكرين العرب ، بل والأوربيين كذلك . وأقصد بذلك عبارة « **الفن للفن** » التى وصفت أحيانا (ص ١٥٧) بأنها دعوة الى التهتك والفجور والتحرر من الأخلاق .

وربما انساق بعض أنصار هذه الدعوة فعلا الى ناحيـة اباحية . **ولكن العبارة لم يقصد بها فى الأصل التحرر من الأخلاق ، أو التمرد على المجتمع أو أى معنى مماثل... ان العبارة ، وهى شبيهة بعبارة أخرى مماثلة هى « العلم للعلم » تدعو الى ضرورة تركيز الفنان جهده على عمله الفنى . فلن يتوقع تحقق أى عمل فنى حق فى حالة خضوع الفنان لعدة غايات قد تكون متضاربة .** والأمر بالمثل فى حالة العالم . فعليه عندما يبدأ أبحاثه أو يدخل معمله أن يضع نصب عينيه الغاية العلمية وحدها ، لأنه لو فكر فى أثر عمله على المجتمع ، أو فكر فى أى اتجاه خبيث قد يسخر علمه له ، فانه سيتحول لا محالة الى فيلسوف ، وستعوق كل هذه التأملات التركيز العلمى المطلوب .

وقد يقال ما هو الضمان اذن الذى يضمن الحيلولة دون انحراف الفنان او العالم ونزوعه الى ناحية خبيثة ضارة بالمجتمع ؟.

والرد على ذلك هو أن المجتمع حر فى الاستفادة باى عمل فنى بعد انجازه ، أو النفور منه . فهو يستطيع الاستشهاد بقصائد الشعر فى المواعظ الاخلاقية ، ويستطيع استخدام بعض أبيات شعر المتنبى فى تعليم الاولاد النحو . ويستطيع تسيير الجنود على بعض الانغام الموسيقية القريبة من ايقاع المارش » ... كما يستطيع كذلك القبض على من يكتب قصة تدعو الى الاباحة أو أى نوع من الشذوذ .

فالمجتمع على الدوام أقوى من أى فرد ومن أى فنان . ولذا فعلينا ان نطالب هذا المجتمع (وهذا خير المجتمع ذاته) ألا يضع غاية أخرى للفنان الى جانب غايته الفنية . اذ أسفرت المحاولات المماثلة التى حدثت فى الماضى عن ظهور أعمال فنيةغثة سقيمة ذات غايات عابرة ، لم يقدر لها الخلود .



برناردشو

وبرنارد شو من الأمثلة الدالة على ذلك . فلم تبق من مسرحياته غير المسرحيات التى توارت فيها الغايات غير الفنية جانبا ، فاستطاعت الغاية الفنية أن تبرز وأن تبقى . وقصارى القول أن بقاء كل فن وظيفى مهدد بانتهاء الوظيفة التى يؤديها .

وآخر الخواطر التى اخترتها للعرض فى هذا المقال ، هو دفاع آخر عن الرومانتيكية . فلقد صوب شو سهام نقده الى هذه النزعة الرومانتيكية وجعلها مرادفة لكل ما يكره . فهى تعنى عنده الاغراق فى الوهم والهروب من الواقع والدعارة وتأليه المرأة أو تصورها فى صورة شيطان رجيم وبدت له المسارح عند عرضها الروايات ذات النزعة الرومانتيكية ، وكأنها دور للدعارة يذهب اليها الناس ليروا أجسادا نصف عارية ،ليستمعوا كلمات تثير فيهم الغرائز الدنيا ..

هذا المعنى الذى لجأ اليه برناردشو هو المعنى الشائع لكلمة رومانتيكية . وأظننا نصادفه فى أكثر القواميس والموسوعات . ولكنه فى الحقيقة لا يمثل الرومانتيكية بمعناها الحق . انه يمثلها فى صورتها المرضية ، أو صورة ال mal de Siécle (آفة العصر) ، التي تحدث عنها جوته . ولو أن شو راجع تاريخ الحركة الرومانتيكية لعرف أن هذه الحركة كانت انتفاضة تهدف الى خلق عالم جديد ، ولم يكن مقصدها هو الهروب من الواقع أو الافتتان بكل ما تميز بغرابته أو الاستغراق فى اللذة .. فهذه الحركة كانت ترمى الى مراجعة كل أوضاع الحياة والفكر بعد أن تبين أن الاستقرار الذى تحقق فى العصر الكلاسيكى كان زائفا . وكان من بين أنصار هذه الحركة بعض من أعجب بهم شو من الانجليز كبليك وبيرون وشيللى، وأثنى عليهم فى مناسبات كثيرة .

وأخطر تزييف تعرضت له هذه الكلمة هو استخدامها فى المعنى المقابل للواقعية ، بينما هى فى الأصل تقابل الكلاسيكية المتزمتة المفتعلة . فهى تعادى كل فكر أكاديمى لا ينبع من الحياة ، وتعادى الجمود المنطقى للعقل ، اذ هى تعترف بوجود ملكات متعددة للعقل، حاول الكلاسيكيون قمعها .

وما قاله شو عن الخيال الواقعى (ص ٢٥١) ينطبق على الخيال الرومانتيكى كما يتضح من نظرية كولريدج فى الخيال ، أما النوع الذى يمضى الى آفاق من الوهم لا غناء عنها ، فهو بعيد عن مقصدهم ، وهم كذلك يبغضون شدة الالتصاق بالواقع ، ونسيان قدرة الانسان على التسامى والتعالى والتحليق فى آفاق عالية . هذه القدرة التى تبدو بوجه خاص فى الخلق والابداع .

ولعل شو فى أفضل منجزاته كالانسان والانسان الأسمى » أو « دون جوان » أو « عودوا الى ميتوشالح » كان رومانتيكيا دون أن يدري . ولعل رواياته التي اتصفت بشدة التصاقها بالواقع هى أقل رواياته حظا في الخلود ، لأنها تناولت مشكلات وقتية لم تعد تهم أحدا .

وقد يكون من أخطر عيوب الرومانتيكية الأصلية اقحام الفن فى الفلسفة وتصديه لمعالجة مشكلات فلسفية بعيدة عن طابعه ، فقد ظن الفلاسفة الرومانتيكيون أن الفن وحده هو الذى سيميط اللثام عن سر العالم وحقيقته . وعلى هذا يتضح أن تصور شو أنه أول من حاول

معالجة القضايا الفكرية والفلسفية بوساطة الفن كان باطلا ، فقد سبقه فى هذا الصدد أعداؤه من الرومانتيكيين الأوائل !٠

قد أميل بعد هذه الخواطر الى القول بأننى توقفت مرتين عند قراءة بعض وقائع من حياة برناردشو٠ المرة الأولى عندما قرأت أن برناردشو لم يكن يتقن اللغة الفرنسية ، وفى ظنى أن هذا يصح عن فترة شبابه ، عندما قرأ كتاب رأس المال فى ترجمة فرنسية ، ولكنه قال بعد ذلك أنه يستطيع قراءة الفرنسية مثل قراءة الانجليزية ٠٠٠ وأنه كان قادرا على قراءة الجرائد الايطالية والأسبانية وأغلب الرسائل التى تصله من المانيا ، والدفاع عن طهر شو الجنسى والقول « بأنه كان حريصا لا تعرفه النساء ، وظل متطهرا فى تفكيره الجنسى قبل زواجه وبعده » قد يكون جديرا ببحث كبير يقوم به أحد الفرويديين ، ولكننى عندما رجعت الى برنارد شيو صادفت عنده اعترافا بوجود مثل هذه العلاقات الجنسية قبل الزواج ، وأنه عرف هذه العلاقات فى سن التاسعة والعشرين ٠ وبعد ذلك كان لا يستسلم الا بعد الحاح ومطاردة من بعض النساء !٠٠ واعترف شو بأنه لم يخن أى صديق من أصدقائه وهذه غاية أخلاقية بعيدة المنال فى بلد كانجلترة٠

أكتفى بهذا القدر ، وان كنت واثقا أننى سأعود لا محالة الى قراءة هذا الكتاب ٠ وأننى سأعثر على عدة عبارات وفقرات ترغمنى على البحث والتأمل ٠ فلغة الكتاب حلوة سائغة أو هو قد كتب بنفس السلاسة التى اشتهر بها شو، والتى وصفها الكاتب وصفا رائعا عندما قال : « أنت لا تقرأ له شيئا حتى يغريك أوله بآخره ويفتنك آخره عن أوله » ، ولقد شعرت أثناء القراءة بشدة تأثر الكاتب بسخرية شو ، وبدا ذلك بوجه خاص فى ص ٤١ عندما أراد تصويره فى الفترة ما بين العشرين والثلاثين فقال : « اذا حاولت تصويره فى هذه الفترة من حياته فستجده شابا بين العشرين والثلاثين ، زرى الهيئة أشعث الملبس ، له كسوة واحدة سوداء ، لوحتها الشمس فأحالتها خضراء ٠ أما أكمامها فلم تكن سليمة لأنها كانت قد تهالكت ثم شذبت بالمقص ٠ وأما قبعته فكانت عجبا بين القبعات اذ كانت بالية منبعجة ٠ ثم هذان الحذاءان أكانا حذائين حقا ؟ لقد كانا نعلين سميكين يصمدان لعذر ، ورواحه بين المتاحف والمتنزهات ومعارض الفن ٠ وهذه اللحية التى كادت تنبت ٠ لقد أصبحت لحية حمراء ، لكنها لم تكن كثة ٠ وتلك هى صورة شو بين العشرين والثلاثين حينما كان يحاول أن يدرس وأن يكتب وأن يخطب وأن يقرأ٠

وعلى هذا النحو نصادف عدة فقرات فى هذه الدراسة المستفيضة الوافية ٠ وانني أقول وافية برغم اعتذار المؤلف فى بداية الكتاب بأنه أغفل بعض فصول عن الفن والموسيقى ٠ وانني أطمئن الى أن هذه الفصول ما كانت لتضيف أى شىء الى الكتاب ، ولعل هذا الحذف كان لصالح برنارد شو ، لأنه لم يقل شيئا عن الموسيقى يستحق البقاء ٠

مثل هذه الدراسة جديرة بالاقتداء ٠ فعندما نطلع على ما كتب عن الشخصيات الكبيرة، فاننا نشعر بالنقص الكبير الذى تعانيه المكتبة العربية، كما نشعر بأن الطريق ما زال طويلا أمامنا حتى نعرف أعلام الفكر والفن والسياسة معرفة حقة٠ ألا نقنع بأكثر ما كتب عن الأعلام عندنا ، لأن الدراسة تستوجب -كما قال الكاتب « مصاحبة للشخصية تستغرق سنين طويلة » ٠ « وتمثل للشخصية فى جدها وهزلها حتى يمكن ادراك روحها وجسدها وعقلها ووجدانها ٠٠٠ بحيث يتصور الكاتب من يكتب عنه جاثما الى جانبه ، عقلا خالصا من غير مادة ، وروحا خالدة من غير جسد » ٠٠ مثل هذه الدراسة لن تتحقق الا اذا تجرد الكاتب من أية « غاية » غير فنية ، ولم يخضع لأية ضرورة ، أى كتب « فنا للفن » ٠

د ٠ أحمد حمدى محمود

من بقايا الكأس

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة

عرض ونقد :

مصطفى عبد اللطيف السحرتي



١

أشهى مافى الكأس للشارب بقاياه ولعل أشهى مافى شعر الشاعر محمد طاهر الجبلاوى للقارىء · هذه البقايا التى جمعها فى ديوانه الذى أسماه « من بقايا الكأس » ·

فهو ديوان خفيف لطيف ، جمع طائفة من شعر الخواطر وذكريات الحب ، وعددا معدودا من شعر البحر ، ولمة من الشعر الوطنى ، وشعر الرثاء ، وكوكبة معتبرة من الشعر الانسانى الوجدانى ·

وأحسب أن هذه المجموعة تعطينا صورة تكاد تكون مكتملة من شعره المنوع وتمثل أسلوبه السهل الرائق ، وموسيقاه العذبة الصافية ، واتجاهاته ومضامينه فى مراحل حياته ، تمثيلا صادقا ·

فتكشف كشفا عابرا عن حبه ولهوه وأثر نافثات السحر فيه ، حتى اليوم ·

كما تكشف عن هيمانه فى مرحلة الشباب بين آلاء الطبيعة ، وأبنائها وبناتها ولايزال هذا الهيمان ساريا فى قلبه ، وآية ذلك قوله فى قصيدته « بقايا الكأس » :

سبح الطير على الأفق ضحى
فتسنمت مع الطير السبوح

وجرت ريح الصبا جامحة
فقطعت الشوط والريح الجموح

وبدا الروض بعينى مصبحا
فتساقيت مع الروض الصبوح

واذا النجم مع الليل سنجا
قمت فى الليل بأشواقى أبوح

ذاك عهد قد حلا لى زمنا
ومضى عنى وفى القلب طموح

***

وتكشف ـ فى مرحلة ثانية وأخيرة ـ عن مواجهته للحياة ، ورصده لأحوال الناس وتعرف آلامهم ، والافصاح عنها ، كأنما شجوهم شجوه ، وكأنما قلوبهم تجمعت فى قلبه ، فيقول فى القصيدة ذاتها :

فاذا أن فؤاد موجع ... خافض الصوت عيى بالأنين
أو دعا داع لحق ضائع ... سلبته منه أيدى الغاصبين
أو صحا فى الليل صب وامق ... حائر المهجة بالجرح دفين
قلت لبيك وقلبى خافق ... يحمل الآلام عنهم أجمعين
وكأن القلب فيه رصد ... يتلقى الشجو عنهم أجمعين

نظم
محمد طاهر الجبلاوى

ولم تقف نوازعه عند هذا فقط ، بل ان له لمشاركات وجدانية مع الحيوان والطير ، فى شعره الانسانى الذى أظن أنه خير شعره • فغابته كما يقول لفاء ، وديوانه هذا يجمع بقايا من انسانها ، وشجرها وطيرها ، وحيوانها ، وما يضطرم فيها من أحاسيس وعواطف •

٢

فثمة بقية من لهب الحب لاتزال متقدة فى قلبه ، لم تطفئها رماد السنين ، وحكمة العمر ووقار الشيب ، فها هو ذا يخاطب نافثة السحر فى قلبه ، يقول :

لا تقولى ماتت الفتنة ماتت
فبقلبى بهجة الدنيا أقامت
وبيومى مثل أمى ما استحالت
أهى ذكرى أم عيان ماثل
فجرها سحر لعينى وضحاها

وبقية من أشواق الشباب ، ولهوه وبدواته ، تندلع بقلبه ، فيحاول اخمادها ، لوقار الشيب وحكمته ولكنها تغالبه وتغلبه حينا ويغلبها حينا آخر ولا يجد مناصا فى هذا الصراع النفسى من الجأر بالشكوى يقول فى قصيدته « بقايا شباب » :

ويلاه من وجد يصبا ول مهجتى والعود داير
مابين أيامى التى تمضى وأيامى الحواضر
بحر أخوض عبابه وأنا قليل الحول خائر
أومت الى تروزنى فتبعتها والقلب صاغر

***

ونبادر فنقول أن هذه البقية من الأشواق ، والبدوات ، اذا طوفت بقلبه وزارته ورازته ، فانها لا تخدره ، ولا تجعله يعيش فى الماضى ، بل انه يجد من ذكريات الماضى الجميلة دافعا قويا الى النهوض ، والعمل والاقدام ، وبلوغ الأمانى ، فهو انسان يجد فى الحاضر قيمة ، أو بمعنى آخر هو انسان يؤمن بالقيمة الحاضرية وقد جلى ذلك فى قصيدته « بين أمسى ويومى » حيث يقول له الأمس :

قال لى اليوم وهو ينصت عن قرب
ويوحى الى باللفتات
أيها الشاعر الذى ليس ينسى
غابرا من زماننا غير آت
وزمانا قضيته فى غمار
من مراح الشباب والنزوات

قم فلاق الحياة بالحزم وانهض
للأماني مسدد الخطوات
ها هو الكون حافلا قد فتحنا
ه تأمل جماله فى أناة
ودع الأمس ان للأمس يوما
قد تقضى واليوم أمس الممات (٢)



***

ونود قبل أن نمضى فى بيان بقية هذه البقايا أن نقف وقفة قصيرة عند التعبير الفنى لهذه الخواطر النفسية ، فنقول ان الشاعر ، له دراية وزكانة فطرية بكثير من ألوان الموسيقى ، ومن ذلك أنه يبدع فى اخراج حروف الألفاظ من منطقة واحدة ، هى منطقة الفم كمثل قوله : فى بقايا الكأس :

سبح الطير على الأفق ضحى
فتسنمت مع الطير السبوح
وجرت ريح الصبا جامحة
فقطعت الشوط والريح الجموح

وهذه الخصيصة نجدها فى كثير من شعره ، وهى تضفى على موسيقاه عذوبة ٠

ومن ذلك ، ايراده لكثير من الألفاظ المتماثلة فى الصوت ، وهو ما يسمونه بالتماثل الصوتى اللفظى Assonance أو اتيانه بحرف فى أول الكلمة متماثل مع كلمة أخرى وهو مايسمى بالتماثل الحرفى Alliteration ، ومثال ذلك قوله فى قصيدته « ذكرى الأيام الماضية » ٠

لا تقولى ماتت الفتنة ماتت
فبقلبى بهجة الدنيا أقامت
وبيومى مثل أمسى ما استحالت

***

فنجد أن ألفاظ : بقلبى ، وبيومى ، وأمسى متماثلة فى الصوت ، ونجده يبدأ بحرف الباء فى أوائل هذه الكلمات فبقلبى ، وبيومى ، وهذا مما يضفى على الموسيقى سحرا وفتنة ٠

والى ماتقدم نجده يأتى بالقوافى المنسجمة المحكمة ، وهو قد يسير فى بعض القصائد على قافية واحدة اذا كانت القصيدة متحركة وقد يغير القافية ، ويختار قافية موحدة لكل أربعة أبيات أو خمسة لتحدث تأثيرها القوى المؤثر ، ومثال ذلك قوله :

***

ولى الشباب ولم تزل فى خاطرى منه بقية
خرقاء تعبث كالوليد بنار أشواق خفية
خضراء كالغصن المنضر بابتسامات نديه
أغفو على أحلامها اغفاءة النفس الشجية

وعلى هذه الوتيرة فى التقنية المنسجمة المحكمة سار فى طائفة من قصائده فى شعر الخواطر النفسية ٠

والى مثل هذه الألوان ، ألوان أخرى ، برع الشاعر فى معرفتها ، حتى لنشعر أن عنصر الموسيقى طغى على عنصر مهم من عناصر الشعر ، وهو عنصر الخيـال ، الذى لا نجـده يلوذ به الا فى القليل ، وبهذا العنصر الموسيقى وجد استعاضة كبيرة عن هذا العنصر ، وهذا لا يقلل فى رأيى من جمال شعره ٠

٣

وقد حفل الديوان ، الى هذه الخواطر النفسية ، بقصائد عن البحر ابن الطبيعة الأكبر الذى عاش على شواطئه فى دمياط كما عاش على ضفاف النيل ، ويبدو لى أن أثر النيل فى شعره كان أعظم من البحر ، فليس فى هذا الشعر ثورة البحر ، وانطلاقاته المتمردة ، ولكن فيه هدوء النهر وسكونه ووداعته ، واذا رجعنا الى القصائد الست التى كتبها عن البحر وجدنا هذه الحقيقة ضاحية جلية ، ووجدنا البساطة التعبيرية تمسح هذه القصائد ، ومن أجملها ماجاء فى قصيدته « الى جوار البحر » حيث قال :

يابحر صوتك فى المساء يهزنى
فأنام أحلم بالسعادة من صداه
وكأن موجك أرغن فى خاطرى
تشدو على أوتاره لحن الحياة

◆ ◆ ◆

يابحر رتل ماتشـاء ونادنى
فأناجيك فى نهارك أو مسـاك
فى غفوتى أو صحوتى لى خافق
يصغى، ونفسى تستجيب الى نداك

◆ ◆ ◆

فاذا أتى الصبح المجلل بالندى
وأنا أجيـل الطرف تحت مظلتى
ألفيت مـدك بالحيـاة يمدنى
ورأيت فيضا منك يغمر مهجتى

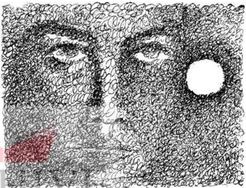
***

فأنت تجد فى هذه القصيدة وأخواتها عن البحر ، بساطة تعبيرية معربة عن انفعال بسـيط واحد ، هو الفرح بصـوت البحر ، ورؤيته والاكتفاء بهذا الانفعال المحدود ٠

وليس معنى هذا أن الشاعر اقتصر فى شعره على انفعال واحد ، أو أن شعره خلا من العنصر الفكرى ، ففى قصائد أخرى له نجد انفعالات متضـاربة ، وفكـرات خفيفة ، وذلك مانلمسه فى شعره الانسـانى الوجدانى ٠

٤

وقد وعى الديوان طائفة من هذا الشعر الانسانى ، نذكر من ذلك قصيدته « ذلك الطفل » ص ١٠ ـ وصوت الفلاح ص ٢٣ ـ ورثاء كلب « ص ٦٢ ـ ورثاء كنارى (ص ٢٩ » وهذه الأخيرة فى رأيى من أعلى قصائده فنا ، وأرخمها موسيقى ، وأجلها تعبيرا عن حزنه وألمه لموت الكنارى ، ولم تخل من العنصر الفكرى ، وفيها يقول :



أين لحن الربيع ، أين الغناء
أين رقص فى وكرك المحبوب
سكنت نغمة وغاب صفاء
وهفا الموت بالكنار الطروب
أين قيثارى الصغير يحيى
بالنشيد الوديع حفل الحياة
فى الصباح الرطيب أو فى العشى
يتغنى بأعذب النغمات
العصافير فى الحديقة تصدح
والأزاهير باسمات الثغور
كل مافى الحياة يلهو ويمرح
وأنا والكنار خلف السور

***

وفى المقطع الخامس يقول :

ضجة الموت خيبت كل قصد
ويد الفقد قطعت أوتارك
فاذا أنت بعض ريش وجلد
ووفود النمال تعمر دارك !

***

فهذه القصيدة تمتاز عن جل قصائده بايقاعاتها المؤثرة ، وجو الأسى السائد فيها ، وبالصور والانفعالات المتضادة بين فرح الطبيعة ، وترحه فى قوله :

العصافير فى الحديقة تصدح
والأزاهير باسمات الثغور
كل مافى الحياة يلهو ويمرح
وأنا والكنار خلف السور

***

فمثل هذا التصوير الانفعالى المتضاد يجسم أساه ، ويكشف عن خصيصة فى التعبير الكيفى .

٥

واذا ما انتقلنا الى شعره الوجدانى فى الرثاء ، طالعتنا قصيدته « عبرة وذكرى » فى رثاء صديقه الأعز الاستاذ العقاد وهى قصيدة جليلة ، جمعت الانفعالات المنوعة والفكرات الطيبة ، فى اطار فنى بارع • والقطف من القصيدة ، يضيع كثيرا من روعتها وكلها جديرة بالتلاوة • وهذا لا يمنعنا من الاستشهاد ببعض مقاطعها ، ففى المقطعين الثانى والثالث يقول :

صديقى من قضيت رضى عيشى ... بأكناف يظللها رضاه
وأعصر من رحيق الحب صرفا ... فلا يغنى ولا يخفى شذاه
أخون الود لو حاولت صبرا ... وكفكفت مدمعى طرف بكاه
وأرضى أن أعيش العمر وحدى ... وأذهب حيث كان ولا أراه
وصدق الود أن نبقى سويا ... ويلقى واحد منا أخاه
امام الكاتبين كتبت سطرا ... بقلبى للأسى أصلى لظاه
رسمت خطوطه فبلغت فيها ... مقامك رائدا فيما حواه
سأتلوه ولا أنفك أتلو ... لتبلغ مهجتى أقصى مداه
وأرثى فيك نفسى ياصديقا ... يعز على الرثاء ومن تلاه
وأحمل فوق طوقى حين أبغى ... مقالا فيك تتلوه الشفاه

٦

ولا نستطيع أن نستعرض باقى ألوان شعره الوطنى وشعره فى المناسبات ، مكتفين بهذا القدر من الاستشهادات بشعره فى الخواطر النفسية ، وشعر الطبيعة ، وشعره الوجدانى فى الحيوان والطير ، وشعره الوجدانى فى الرثاء •

ونحسب أن الشاعر محمد طاهر الجبلاوى قد تفوق فى الشعر الوجدانى لأنه يوافق طبيعته الوديعة ، الحنون ، وأنه أجاد فى التعبير عنه تعبيرا سهلا سلسا عذبا ، مجردا من الاغراب أو التوعر ، كما أنه

لم يعرف التعقيد في مشاعره أو أفكاره ، فلا ابهام ولا غموض ولا تعمق • وديدن النفوس البسيطة الرقيقة الرضية •

وهو لا ينتسب الى جماعة من الجماعات الشعرية فلا هو من جماعة شعراء الفصاحة أو التفاصح ، ولا هو من جماعة شعراء العاطفة المحلقين في الخيال ، ولكنه اذا صحت التسمية من جماعة شعراء البساطة والاستقلال ، من أمثال محمود عماد ، وأحمد رامى ، ومحمود أبو الوفا ، وعثمان حلمي ، وغيرهم من ذوى الأساليب البسيطة السهلة الرقيقة •

وليست البساطة التعبيرية سهلة ، بل هى من الصعوبة بمكان ، ولا يقدر عليها الا الفنان العصرى الحقيقي ، وليست كل بساطة محمودة ، فقد تكون سطحية ضحلة ، وقد تكون عميقة ، وهي تعد نصرا فنيا ، اذا أدت تجربة منظمة ناضجة ، وقليل من الشعراء من يقدر على ذلك •

وليس شك أن من حسنات جماعة البساطة ، صياغة تجاريبهم بهذا الأسلوب السلس العصرى الذى برع فيه الشاعر محمد طاهر الجبلاوى ، واستخدمه استخداما موفقا في تمثيلية « ديك الجن الحمصى » ، والتى أورد منها في آخر ديوانه فصلا كاشفا عن أشجان الشاعر عبد السلام ابن رغبان الشهير بديك الجن الحمصى ، وتمكن بأسلوبه السهل الجميل أن يبرز هذا الشاعر وهو في طوفان من الحسرة والألم لقتل زوجته التى ظن أنها كانت تخونه ، وتيقن من ذلك عندما أخبره عمه بخيانتها ، ثم علم أخيرا بأن هذا العم كذب عليه • فأبان في آخر هذا الفصل ، زبدة هذا الحادث الأليم ، وسبب القتل ، وهو الغيرة يقول :

ياطلعة طلع الحمــــام عليهــــا	فجنى لهـــا ثمر الردى بيديهــا
رويت من دمهــــا الثرى ولطالما	روى الهـــوى شفتى من شفتيها
حكمت سيفى فى مجال خناقها	ومدامعى تجـــرى على خديهـــا
فوحق نعليها وما وطىء الثرى	شىء أحب الى من نعليهـــا
ماكان قتليهـــا لأنى لم أكن	أخشى اذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت على العيون بنظرة	وأنفت من نظر الحسود اليها

وعلى هذه الوتيرة ، سار الجبلاوى فى هذه التمثيلية التاريخية ، وأعرب عن أحداثها ، وعواطفها وانفعالاتها بمثل هذا الأسلوب السهل العصرى الجميل ، الذى يعد نصرا لهذه التمثيلية •

ولو سار الجبلاوى على هذا اللون التمثيلي ، بهذا الاسلوب الممتع ، فسوف يقدم للعربية روائع باقية •

مصطفى عبد اللطيف السحرتى

الهمشري

نص

تأليف

صالح جودت



الهمشري

هل تجىء الدراسات القليلة فى أدبنا العربى المعاصر ، وخاصة فى مجال الشعر والقصة وفق الاحتياجات الحقيقية للمكتبة العربية ؟ والجواب: النفى للأسف الشديد ! فالتقليد والتخبط وسوء التخطيط ، هى العلامات المميزة لعالم الدراسات الأدبية الفقير عندنا • ان أكثر الباحثين يدورون فى فلك واحد ، ويقلدون بعضهم البعض فى اختيار الموضوع بل وانتهاج المنهج نفسه • ومن هنا نفهم ، لماذا يتقدم عالم الدراسات تقدمه البطىء المخجل • وبين القلة من الباحثين التى اهتمت بانتقاء الجديد موضوعا للدرس ، فى الآونة الأخيرة فى مجال الشعر والشعراء ، يجىء صالح جودت ومؤلفه (م•ع•الهمشرى – حياته وشعره) •

ويحتوى هذا الكتاب على مقدمة وستة أبواب ، الباب الأول ، (فى المنصورة) يذكر الباحث فيه أسرة الشاعر الألبانية الأصل ، ومولده فى رأس البر عام ١٩٠٨ • وصباه ويفاعته فى المنصورة، وصداقته لعلى محمود طه و د•ابراهيم ناجى ولزميله فى المدرسة الثانوية صالح جودت، الذين التقوا جميعا فى عاصمة الدقهلية • وصدر شبابه ، وقراءاته الثقافية والأدبية واعجابه البالغ وتأثره بشعراء الطبيعة الانجليز ، وردسورث وكيتس وشلى • والباب الثانى (فى زحام القاهرة) يذكر نزوح الهمشرى والشعراء الثلاثة الى القاهرة ، والتحاقه بكلية الآداب وتوقفه فى الدراسة ، وانضمامه الى جماعة ابوللو • ثم قصة الحب الكبرى فى حياته، ثم يتحدث المؤلف عن ملحمة الهمشرى (شاطىء الأعراف) •

ويفرد كاتبنا الباب الثالث والرابع ، لعمل المترجم له فى مجلة (التعاون) ، وهما يحتلان من الكتاب نصفه • فيطيل صالح جودت فى الحديث عن الجو التعاونى ونشاط الهمشرى الكبير فى المجلة كترجمة لقصيدة الشاعر الانجليزى رديارد كبلنج (اذا) ، وكتابة المقالات المختلفة والقصص فيها• والأبواب الجديدة التى ابتكرها،



حياته وشعره

عرض ونقد
علاء الدين وحيد

مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب

صالح جودت

وزيادة على ذلك جولاته فى قرى مصر زائرا الجمعيات التعاونية ، ثم يتحدث مؤلفنا عن تأثر صاحبه بالشاعر الكاتب التعاونى الايرلندى جون راسل ، ويفرد لذلك الصفحات الكثار !

ويأتى فى نهاية الفصل الرابع بعض ما قاله الهمشرى فى الريف وطبيعته وكائناته ، مثل طلوع الفجر ، وساعة القيلولة وليالى القرية ، والجاموسة الراعية ، والفراشة الصفراء ، واليمامة ، وأشجار الليمون .. الخ .

وفى الباب الخامس (نهاية شاعر) يتحدث كاتبنا عن وفاة الهمشرى – ١٤ ديسمبر ١٩٣٨ – متأثرا بعملية جراحية للزائدة الدودية ، ثم يسجل مرثيات شعراء عصره فيه ، مثل على محمود طه ، حسن كامل الصيرفى ، محمود حسن اسماعيل ، صالح جودت ، عبد السلام رستم ، فايد العمروسى .

وفى الباب السادس ، يعرض صالح جودت لبعض النقاد الذين كتبوا عن الهمشرى ، مثل عبد العزيز الدسوقى فى مؤلفه (جماعة ابوللو واثرها فى الشعر الحديث) ، والذى يتناول فيه بعض مصادر التأثير الشعرى عند المترجم له ، متمثلا بما كتبه الهمشرى نفسه يوما عن شعر الدكتور أحمد زكى ابى شادى فى مقال « عناصر جمال الفكرة فى الاسلوب » . ثم يتناول الاستاذ الدسوقى قصيدة الهمشرى (الى جتا الفاتنة فى مدينة الاحلام) ، ويقارن بينها وبين قصيدة ابى القاسم الشابى (صلوات فى هيكل الحب) ، منتهيا الى تأثر الشاعر المصرى بالشاعر المغربى .. ولكن صالح جودت مع اعترافه بالتشابه العجيب بين القصيدتين ، فى الروح والنفس والتشبيهات ، الا أنه يؤكد أن لا عبرة بسبق النشر ، اذ أن صاحبه الهمشرى قد ألفها ، وهو ما زال طالبا فى مدرسة المنصورة الثانوية قبل أن يتخرج منها عام ١٩٣١ ، بينما نشرت قصيدة الشابى فى سنة ١٩٣٣ .

والدكتور محمد مندور من أكثر النقاد الذين احتفوا بالهمشرى ، فقد كتب عنه مثلا فى كتابه (محاضرات فى الشعر المصرى بعد شوقى) .

ويرجع صالح جودت إلى هذا المؤلف عارضا ما كتبه الناقد الكبير ، الذى يصف الهمشرى بأنه كان «شاعرا غارقا فى الرومانسية بطبعه وظروف حياته ، ولا أظن أن رومانسيته صادرة عن تمذهب ووعى نظرى وقصد وافتعال، وانما هى رومانسية نبتت من وجدان الشاعر كما نبت ذلك المذهب فى بدء ظهوره عند كبار الرومانسيين الغربيين»٠ (ص ٢٠٩)٠ ويتمثل مندور بقصيدة (النارنجة الذابلة) على تأكيد رومانسية المترجم له ، ولكن مؤلفنا يختلف معه فى ذلك بالنسبة لهذه القصيدة بالذات٠ فهى فى رأيه رمزية تصل الشاعر بقصة حبه ، من خلال طفولته فى قرية «نوسا البحر »٠

والناقد الثالث الذى استشهد به صالح جودت، هو أو هى الشاعرة العراقية نازك الملائكة فى كتابها (قضايا الشعر المعاصر) ، والتى تحاول أن تفسر موقف الشعراء ، الشابى وكيتس وبروك والهمشرى ، الذين توفوا فى سن مبكرة ، من الموت ٠ ثم تتحدث بعد ذلك عن دلالة التكرار فى شعر الهمشرى ٠

ويحاول المؤلف أن يتابع نضوج الهمشرى الشعرى ، فيبدأ مع أول محاولاته فى النظم ، حيث مرحلة الفطرة والسليقة٠ عندما كان تلميذا صغيرا بالسنة الأولى فى مدرسة المنصورة الثانوية ، ويكتب قصائد مثل (صورتك السماوية) :

ما البدر الا صورة
لك ياوحيدا فى البهاء
عكست محاسنها البهيـ
ـة حين واجهت السماء

أو أخرى يملأ بها أوقات الفسحة فى المدرسة مرحا وبهجة ، يداعب بها زميلا أو يهجوه ، كقوله فى طالب دميم :

سبحان من خلق القرود وصورا
وقضى علينا أن نراك وقدرا
ما كنت الا خنفساء عتقت
أو عنكبوتا فى الوجود مكبرا

ثم يعرض المؤلف للمرحلة الثانية من تطور الهمشرى الشعرى ، التى اعتمدت على ما حصل عليه جادا من ثقافة وتجربة وممارسة ٠ ويميز صالح جودت هذه المرحلة عند صاحبه بقوله « وقد فطن الهمشرى يومئذ الى حقيقة رائعة تغيب على أكثر الشعراء فى مثل هذه السن المستوعبة هى أن الشاعر ينبغى له أن يتزود بقوة روحية تحميه من الانحراف فى تيار المادية ، وتهيء لخياله صور ما وراء المادة ، وتيسر له التحليق فى القمم السامقة ، وتعطيه معنى الرمز ورمز المعنى » (ص ٢٣) ٠ فقرأ شاعرنا القرآن كثيرا وتفاسيره، وكذلك التوراة والانجيل ،واستهوته منهما مزامير داود فى العهد القديم ، فترنم بما فى حديثه وشعره ٠

ثم يتناول كاتبنا آخر مرحلة وصل اليها الهمشرى ، كما يعكس مستواها الجيد الناضج مثلا ، قصيدته (أغنية الفلاح المصرى لجاموسته الصغيرة المحبوبة) ، التى نشرت فى مجلة التعاون فى ديسمبر ١٩٣٥ ، والتى يقول فيها (ص ١٦٠ - ١٦١) :

قد جبت كل بقاع القطر مغتربا
من ثغر دمياط حتى سفح اسوان
على أرى شبها يحكيك فى دعة
أو خفة أو جمال منك فتان
لم الق غيرك يا جاموستى أبدا
وحسنا على القرية الحسناء يسبينا
من أى ينبوع حسن تستقى وهجا
عيناك ؟ هل سحرهاروت بوادينا ؟
أحرى بزهر الربا ان يفتدى أكلا
وان يكون على الريحان مرعاك
ادعوك جاموستى ؟ لا أنت صاحبتى
بل انت فاتنتى ٠٠ يا حسن مرآك

وفى معرض السمات الشخصية، يرسم الكاتب ملامح صورة المترجم له ، كاتفاق كل من عرف الهمشرى أواتصل به من أصدقاء ، أو زملاء فى العمل ، على طيبة قلب شاعرنا وبراءته ٠ فيقول واحد مثل رئيسه الأديب الدكتور محمد أبوطايله « كان سريع الغضب سريع الرضا، له قلب كقلوب الأطفال صفاء ونقاء ، لا يعرف الحقد ولا الرياء ولا المواربة ، بل جبل على الصراحة التى تؤلم من كان لا يعرف طباعه » ٠

ويقرر مؤلفنا أن صاحبه الهمشرى ، مزدوج الشخصية ٠ فبينما هو ينثر الدموع فى كتاباته وقصائده ، اذ يعيش حياته محتفلا بها مقبلا على

أطايبهــا مندفعا الى لذائذها ، شــديد الكراهية للموت والأحزان ! كمــا يصف صــالح جودت صديقه الشاعر بالبوهيمية النظيفة • ولعله أراد بذلك أن يجمع له انطلاق الفنان من كل قيد وعرف وتقليد ، الى المحافظة على أخلاقه ودينه ! ولست أدرى هــل أراد كاتبنا بذلك أن يبرىء صــديقه الشــاعر من العيوب ، أم أن يفرق بين نموذجين مختلفين ينتميــان الى جنس واحــد : النظــافة واللانظافة البوهيميتين !؟

فى بعض الأحيان تعتمد شهرة فنان على عمل معين من انتاجه ، ينسب اليه ويعرف به وكأنه لم يبدع أو ينشىء غيره • وأصدق الأمثلة على ذلك ملحمة (شــاطىء الأعراف) لصــاحبها محمــد عبدالمعطى الهمشرى — التى يقال عنها انها «تكفى وحدها لأن تثبت مكانته فى تاريخ الأدب العربى، حتى ولو لم ينظم غيرها فى حياته » (ص٢٣) — يتساوى فى التأثر بذلك، القارىء الناقد والقارىء العادى • ولذلك فان الحديث حول هذه القصيدة الضخمة ، يجب أن يستأهل منــا وقفة فى هــذا الموضع •

استوحى المترجم له (شــاطىء الأعراف) من سورة قرآنية ، هى « الأعراف » وذلك فى تأثره الشديد بقراءاته الكثيرة فى كتاب الله• والأعراف كمــا يقول المفسرون ، مكان بين الجنــة والنار • ويقول المؤلف عنــه « وقد التقط منــه الهمشرى رمزيته ، فجعل اعرافه فى ملحمته الكبرى شاطئا خياليا يقــع وراء عالم الحيــاة ، ويشرف على عالم الموت ، وراح يتخيل نفسه فى رحلة الحياة والموت ومابينهما » (ص٢٣—٢٤) • ومن الضرورى لقارىء (شاطىء الأعراف) أن يقف على المنــاخ النفسى لنظم الهمشرى لملحمتــه هــذه ، حتى يصــل الى أغوارها ويدرك منها أقصى ما يمكن أن تبذله من فهم وتنوير •• ونجد هــذا كله فى قصــة الحب الكبرى فى حيــاة صاحبها •• غرام فاشــل من جانب واحد لزميلة طفولته ، ابنــة قرية « نوسا الغيط » القريبة من مدينة المنصورة • وهو هوى ترك فى قلبه جرحا غائرا لم يندمل أبدا ، وترك بصماته القاسية أيضا على نفسه حتى آخر أيامه، وعكس شعره هذا الأسى والحرمان والأمل الخائب• ولكن الهمشرى رغم هــذا كله استطاع أن يخفى شخص الحبيبة بين جوانحه عن أقرب أصدقائه ، وتركهم يظنونها أية انثى أخرى ، عرفها أو شبب بها كمــا فعل فى قصيدته المعروفة (الى نوسا) التى توجه بالغــزل فيهــا الى « توحه » حســناء المنصورة التى اغرم بها الكثيرون وقتذاك •

العرض الفــاتر هو الســمة التى تميز تناول صالح جودت لجوانب كثيرة من دراســته هذه عن الهمشرى • ولعل هذاما جعل القارىء يحس انه يطالع صــورا جامدة لا حياة فيهــا ، ولا انفعال حقيقى بها رغم ما نعرفه عن الصداقة التى كانت تربط بين المؤلف والمترجم له • وربما كان لعدم توفيق كاتبنا فى اصطناع الاسلوب القصصى — لنذكر هنا قصته الطويلة الفاشلة (بنت افندينا)— دخل فى هذا العرض الفاتر • ومن الطريف ان هذا المستوى الهابط، يقابله العكس فى دراسة أخرى لصالح جودت أيضا عن أحد أصــحابه كذلك ، الذى جاء ذكره أكثر من مرة فى سيرة الهمشرى وهو د • ابراهيم ناجى ! فمن الواضح ان كاتبنا كان أكثر اهتماما وعناية بالشــاعر الطبيب منه بالشاعر التعاونى! رغم ان العكس يجب أن يكون هو الصحيح، فناجى معروف جيدا للقارىء العربى الذى تابع شعره وأخباره حتى آخر أيامه ، بعكس الهمشرى الذى مات شــابا وفى وقت مبــكر عام ١٩٣٨ • فما هى علة ذلك ؟

لعل صالح جودت قال كل ماعنده ، فى اجتماع الشعراء الأربع ، على محمود طه وابراهيم ناجى والهمشرى وصــالح جودت ، فى المنصورة وتأثر بعضــهم بالبعض الآخر ، وهو ما تعتمــد عليــه الفصول الأولى فى كل من الدراستين • ولما كان الحديث عن ناجى اسبق ، فلم يأت مؤلفنا بجديد، واعتمد كتابه اللاحق على السابق وقصر عن مزيد• والعلة الأخرى التى أراها مسئولة أيضــا ، هى انتماء الهمشرى وصالح الى جيل واحد وتقاربهما فى العمر وزمالتهما فى المدرسة الثــانوية ، وما يمــكن أن يولد هــذا كله من تنــافس وأثرة ، وانعكاس ذلك باغفال جوانب الآخر المضيئة أو ابهاتها على أقل تقدير !

ويبدو صالح جودت فى هذا الــكتاب ، رجلا ثرثارا يلذ له الحديث عن نفسه دائما ، ولذا فهو كثيرا ما يستعرضها أمام القارىء ويلح فى ذلك الحاحا باردا مزعجا ، غير مبال بما يثيره ذلك من



ضيق وسأم وفقدان لشهية المطالعة ، مهما بلغت الرغبة فى معرفة حياة الهمشرى وشعره ! ان مؤلفنا يريد أن نستشعر وجوده هو فى كل لحظة، لا كمؤلف ولكن كشخصية أولى فى الرواية ، رغم أن الدراسة ليست لحياته أو شعره هو !

نعم ان صالح جودت زميل الهمشرى وصديقه القديم ، ويمكن أن يعرف عنه الكثير ٠ ولكن هذا لا يعنى أن يتطفل على صاحبه بلا ضرورة ملزمة ، لمجرد انه صاحبه وانه يضع عنه كتابا ! لقد أكثر الملتقى من التماس الأعذار « الواهية » للمؤلف ، وهو يربط نفسه بالمترجم له فى أشياء غير قليلة٠ ورغم ذلك لا يقنع صالح جودت بما أسرف ، بل يطمع الى أن يتصدر هو الصورة ويلغى وجود الهمشرى نفسه الغاء ، كما فعل مثلا فى أثناء الحديث عن اتصال الهمشرى بجريدة التعاون وعمله بها! لقد انتظر القارىء أن يبين له الباحث، الأسباب أو الظروف التى لابست التحاق المترجم له بجريدة التعاون بالذات ٠ فماذا فعل صالح جودت ؟ أخذ يقص علينا قصته هو ــ أى صالح جودت ! ــ مع التعاون ! وكيف أحب هذا العلم وهو طالب بقسم العلوم السياسية بكلية التجارة بجامعة القاهرة ، وكيف آمن به ايمانه بوطنه ! وكيف قرأ عنه بتعمق حتى انه حصل فيه على درجة الامتياز فى الامتحان ٠ وكان أول هذه المادة فى البكالوريوس سنة ١٩٣٧ و ٠٠ الخ (ص ٧٣ ــ ٧٦) ! وعندما ينتهى صاحبنا من سرد أمجاده ، يتنفس القارىء الصعداء ظنا منه أن الحديث سيتحول الى الهمشرى المسكين ، ولكن المؤلف لا يعيره اهتماما ، ويأخذ فى تناول زملاء الهمشرى فى جريدة التعاون ، مثل د ٠ ابراهيم رشاد ، و د٠ محمد أبو طايله ، ومحمد مصطفى حمام ، ثم ينتهى الحديث ! وبعد هذا كله يطلب منا صالح جودت أن نقتنع بأن الهمشرى « اشرب روح التعاون ، فتغلغلت فى أعماقه ، وآمن بأغراضه ومراميه ، منذ اليوم الأول الذى التحق فيه بتحرير مجلة التعاون » (ص٩٦) !

لقد ألغى كاتبنا بتجاهله موقف المترجم له من حركة التعاون قبل التحاقه بصحيفة التعاون ، الكثير من التعاطف الواجب ازاء نشاط الهمشرى فى الحركة التعاونية بعد ذلك، وجعل هذا النشاط يبدو متطفلا على صاحبه، لاجذر له يرتبط بأعماقه أو مزاجه أو دراسته ٠ أو بمعنى آخر ، شيئا جديدا لم ينبع من داخله ، وانما هى ضرورة وظيفية لم تتحول الى عمل روتينى بارد ٠ لسبب بسيط يرجع الى طبيعة الهمشرى نفسه ، التى ترفض أن تأخذ الأشياء مأخذا مستخفا ، فتناوله بجد كل الجد كما ذكر مؤلفنا نفسه أكثر من مرة!

وبصالح جودت أيضا ضعف شديد ، للاشادة بالأصل الأجنبى للشاعر العربى أن وجد هذا الأصل ! وهو يحاول دائما أن يجدثغرة فى حديثه ينفذ منها الى عرض هذا الجانب المحبب الى نفسه٠ ولماذا هذا التهالك كله؟! لأن صالح جودت نفسه، تجرى فى عروقه دماء غير عربية أيضا ٠٠ دماء تركية ! وما أكثر ما أرجع أديبنا الفضل الأول فى شاعرية أنبغ شعرائنا الكبار ، الى أصلهم الأجنبى ! فشوقى وحافظ ــ ويلحق صالح جودت ذاته بهما ــ أتراك الأصل ! ويكتب مؤلفنا (م٠ع٠ الهمشرى ــ حياته وشعره) هذه الكلمات فى نفس المعنى « لو جرت الأمور مجراها الطبيعى ، لكان الهمشرى شاعرا أعجميا ، ولعاش على الشاطىء الآخر من البحر الابيض ، ليضيف الى أدب تلك الدولة الصغيرة (البانيا) لا للأدب العربى ، ما خلف من تراث ذكى ! » (ص١٣) ٠ والسبب ٠٠ جده الألبانى !

من المعروف أن الهمشرى لم يكتب شعرا وطنيا

أو سياسيا ، وهي ظاهرة تبدو غير عادية وخاصة في وقت كانت حياتنا تعج بالوطنية والسياسة في العشرينات . وكانت يمكن لصالح جودت أن يعلل ذلك بالمزاج الشخصي للهمشري ، ولكنه في اعتذاره عن صاحبه ، يحاول أن يجعله سببا عاما لا خاصا ، حتى تأخذ الصورة خطوطا وألوانا أثبت . فيذكر أن نأي شاعرنا عن السياسة ، معناه أنه كان يعيش في داخل ذاته التي تعبر عن مشاعر شعبية صميمة ، بل لعله « كان أكثر وطنية من أكثر شعراء زمانه ، ولكنه كان يرى ان السياسة الحزبية السائدة عى عصره لا تعدو أن تكون بعقول الناس ونفوس الشباب وصوالح البلد ، ولهذا فانه أثر منذ أول شبابه ان يبقى بعيدا عنها ، الى حد أنه لم يشترك في مظاهرة واحدة من مظاهرات الطلبة ، التي كانت طابع عهدنا في المدارس الثانوية والجامعة » (ص٩) !

وهذه النغمة الأخيرة اصبحت تقليدية وجد شائعة في انتاج صالح جودت ، يلجأ اليها كثيرا وكأنها كليشيه دائم ثابت لايوجد سواه ، يستوعب ويفسر كل شيء ! يستخدمها في كل مايكتب ، واقرب أمثلة ذلك نجدها في قصته الطويلة (بنت افندينا) ، فهناك نفس الحملة الظالمة على هذه الحقبة المتقدمة من تاريخنا في العشرينات والثلاثينات والحملة بهذه الطريقة زيادة على انها جائرة ، فهي مريبة حقا لأنها تحاول عامدة ان تشوه حقبة من حياتنا ، وان تتجاهل كفاح الأمس بتلطيخ أسلوبه .. بدعوى ان هناك كانت أحزاب! وعلى هذا القياس لانستبعد ان يأتي آخر ، ويعمد الى هز ثقتنا في تاريخنا كله لأن ملكية فاسدة كانت تسيطر عليه ! ومهما كان شأن نظرة صالح جودت هذه ، التي هي اقرب ما تكون الى الافلاس ، فهي قد أغمطت حق الهمشري نفسه ، فلم تحاول مثلا ان تربط بين عدم قوله في السياسة والوطنية ، وبين ماجبل عليه من ترفع ، فهو لم يتكسب بشعره أو يميل به الى مستوى الاخوانيات والمناسبات . وأهم من ذلك ما تجاهله مؤلفنا تماما في نظرته هذه ، وهو التقاء القيم السياسية بالوطنية في ذلك الحين ، وبمعنى آخر تشابه العمل الوطني بالسياسي ، فقد كنا في تلك الأيام بلدا محتلا ـ شعاره الأمين «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» ـ شديد قبضة المستعمر على عنقه ، فهو لا يحاول ان يخففها فحسب ، بل ان يبعد صاحبها عنه ويطرده خارج الحدود . فأين هذا كله مما ذهب اليه صالح جودت في تعليله المهزوز ؟!

ويأخذ صالح جودت على د. محمد مندور في (ص ٦٢) لا موضوعيته ، وهو يتحدث عن (شاطىء الأعراف) للهمشري ، اذ لم يعتمد في دراسته لهذا الشعر الا على مرجع واحد موجز هو (الروائع لشعراء الجيل) لمحمد فهمي ! ومن الطريف أن اللاموضوعية نفسها هي التي يأخذها القارىء على صالح جودت ذاته في الكثير من فصول الكتاب ! فاذا تجاهلنا مثلا ما ذكرناه في مكان آخر ، عن ولع مؤلفنا واغراقه في التطفل بنفسه على السياق ، بحجة صداقته الوطيدة للهمشري ، فهناك أيضا الحديث الطويل المسرف في الطول ، عن مجلة (التعاون) وكتابها ومقالات المترجم له فيها . وكان الهمشري لم يعمل في الصحافة الا بها ، ولم يكن له نشاط في غيرها أبدا . وتعليل ذلك جد يسير ، ونستخلصه مما كتبه صالح جودت نفسه ، الذي يحكي لنا في غير موضع عن حبه الشديد للتعاون منذ وقت مبكر هذا الحب الذي لم يوجد مثله أو بعضه عند الهمشري نفسه ، وخاصة قبل ان يلتحق بمجلة التعاون موظفا ومحررا ! والحديث عن الجانب الصحفي عند المترجم له ، يدعونا الى ان نتساءل ؛ اليس لعمل الهمشري في الصحف الأخرى دلالة ما ، نستأهل من مؤلفنا اهتماما أيضا ، لأنه يعكس جوانب أخرى في حياة وأدب تجاهلها صالح جودت تماما ، مكتفيا باشارة سريعة عنها في خمسة أسطر (ص ٧٣) ، بينما أفرد لمجلة التعاون عشرات الصفحات من المترجم له ؟

لقد عمل الهمشري ايضا في صحف ومجلات ؛ المصري ، الدستور ، الصباح ، المصور ، روايات الجيب . واختلف انتاجه فيها بين القصة القصيرة والرواية ؛ المؤلفة والمترجمة . فلماذا تسقطها

جميعا من حسابنا – طبعا « سلق بيض » ! – وكأنها كم مهمل لا قيمة له ولا خطر ؟! لقد تجاهلها صالح جودت تماما ، مكتفيا باشارة سريعة عنها فى خمسة أسطر (ص ٧٣) بينما أفرد لمجلة التعاون عشرات الصفحات من ص ٧٧ – ١٦٨ !

ويكتب المؤلف عن الشعراء الذين تأثر بهم الهمشرى تأثرا كبيرا ، فيذكر المدرسة التى تضم مطران والعقاد والمازنى وشكرى فى الشعر العربى • كما يشير الى وردزورث وكيتس وشلى الانجليز فى الشعر الغربى • ومن الطريف ان صالح جودت وهو يفرد حوالى تسع صفحات للشعراء البريطانيين ، وبيان تأثر المترجم له بشعرهم • لم يفعل شيئا من هذا أبدا بالنسبة للشعراء العرب : وكأن الهمشرى ليس شاعرا عربيا قرأ أدبا فى لغة الضاد ! ولذلك لم يعرف القارىء أوجه هذا التأثر ان وجد حقيقة !

ويخيل الى ان أهم عيوب الكتاب ، هى طريقة خطف الأشياء ، التى اتبعها المؤلف فما اكثر مرور صالح جودت سريعا على عناصر أو مواضع بلا أية مراعاة لحاجة الدراسة الى التمهل والتعمق حتى بدت بعض الأجزاء وكأنها رءوس موضوعات تنتظر الحديث عنها ! كما فى تناوله لأثر البيئة فى شعر الهمشرى مثلا ، او التقاء الشعراء الأربعة ؟ ناجى وطه وجودت وعبد المعطى الهمشرى فى مدينة المنصورة • فلا يكتب أديبنا عن المثال الثانى ، هذا الحديث الذى لا يتكرر دائما الا كلمات سطحية عائمة عن اجتماع الاربعة فى ندوة يومية ، يعرض كل منهم على الآخرين ما نظم وما قرأ • « وهكذا اثر كل منا فى الآخر ، وتأثر به ، الى حد ان أحدا منا لم يدر من التلميذ ومن الأستاذ ، والى حد ان خطوط شعرنا قد تشابكت وتشابهت فى ذلك العهد ، قبل ان تتضح الواننا » (ص ١٩) !

واحدى ظواهر هذا الكتاب ايضا ، استخدام مؤلفه للشائع من الحقائق العلمية أو التى تعد كذلك ، استخداما سطحيا مبتذلا مبالغا فيه ، لا يحلل ولا يفسر بل يعطى لهذه الظواهر العلمية مزيدا من التقرير الساذج ، ويجعل القارىء يشك فى هذا الكلام العائم الذى يعرض عليه • وأقرب الأمثلة على ذلك ، تناول صالح جودت لدور الوراثة فى الهمشرى •• فهو ما يكاد يتحدث عن عثمان الهمشرى والد الشاعر وحبه للموسيقى والطرب فى سطرين اثنين ، حتى يقرر نتيجته النهائية •وانسابت الموسيقى فى دم محمد ، فاستحالت الى شعر !! (ص ١٦) •

السرعة والاستخفاف بوعى القارىء واللاجدية هى المسئولة عن أشياء كثيرة فى هذا الكتاب • ففى احد المواضع يقول صالح جودت ، ان الهمشرى لم يكن معجبا بمدرسة شوقى الشعرية ، بل كان يفضل عليها مدرسة مطران والعقاد والمازنى وشكرى • ولذلك لم يتأثر نظمه بشعر أمير الشعراء ، الا فى قصيدة واحدة فقط هى (عاصفة فى سكون الليل) ، التى استواحا من قصيدة شوقى المعروفة (دمعة وابتسامة) • ولكن ما تعليل هذا التأثر الأوحد ؟! وهنا يصمت المؤلف ، وكأنما أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح !

كما ان هذه البواعث أيضا هى المسئولة ، عما انتاب صالح جودت أحيانا من نسيان ، عرضه الى ان يناقض نفسه ، كما حدث بالنسبة الى مسقط رأس الهمشرى • فهو فى (ص ١٧٦) السنبلاوين ، بينما يذكر فى (ص ١٤) انه ولد فى رأس البر !

على اية حال ، فمهما اختلف القول فى (م•ع• الهمشرى – حياته وشعره) فلا شك انه ملأ مكانا شاغرا فى المكتبة العربية ، التى لم يظهر فيها حتى اليوم ديوان الشاعر الهمشرى نفسه !

علاء الدين وحيد

فن المونتاج السينمائى



عرض ونقد
أحمد فؤاد درويش

تأليف : كاريل رايس
ترجمة : أحمد الحضرى
مراجعة : أحمد كامل مرسى

ابتهجت جماهير وعشاق الثقافة السينمائية، بالهدية الثمينة التى أهدتها لهم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ولقد تمثلت تلك الهدية ، فى كتاب يعتبر من أمهات الكتب السينمائية فى العالم ، ولا عجب فلقد تخصص هذا الكتاب فى معالجة تفصيلية ، لجانب من جوانب المشكلة « النوعية » السينمائية . وهذا الجانب هو المعروف بالتتابع الفيلمى أو المونتاج ... ولقد اشترك مع المؤلف كاريل رايس فى اعداد هذا الكتاب والاشراف على اصداره ، أسماء لها مكانتها وفاعليتها فى تاريخ السينما العالمية ، من أمثال عضو الأكاديمية السينمائية الانجليزية ثورولد ديكنسون ، والمخرج المعروف دافيدلين ، والناقد

الكبير أرنست لندجرن ، والمخرج السينمائى بازيل رايت ، والأسماء السابقة وغيرها ، هى اللجنة التى عينت من أكاديمية الفيلم البريطانى للاشراف على هذا الكتاب والذى نحن بصدده اليوم •

واذا قلنا ان الكتاب ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية ، فبديل هذا القول ان الكتاب تسبقه مقدمة وتليه خاتمة • والمقدمة هنا انما تقابل القسم الأول والذى يتناول فيه المؤلف عرضا لتاريخ « تركيب الفيلم » من وجهة نظر الفيلم الصامت والناطق ، أما خاتمة الكتاب فتقابل القسم الثالث والأخير والذى نلتقى فيه «بالقواعد الأساسية للتركيب الفيلمى» والتى يتحقق السرد عن طريقها ، ويناقش رايس هنا تركيب الصوت وكيفية تركيب الصورة ، وضرورة عملية « التزامن » Sincronisation بين تركيبات الصوت والصورة •

أما القسم الثانى والذى يتناول فيه المؤلف « التركيب الفيلمى من الناحية العملية » ، واعتقادا منى بأن هذا القسم هو مناط قول المؤلف بل وبيت القصيد فى الكتاب كله ، فاننا سنعمد للتركيز عليه ، بعد عرض خلاصته ، التى تشكل نبعا لاينضب ، فى مثل هذا الموضوع ويبدأ كاريل رايس ، فى القسم الأول مقدما



سيرجى أيزنشتاين المخرج الاشتراكى الكبير الذى تعرض لهجوم كاريل رايس صاحب هذا الكتاب دون موضوعية علمية سليمة فى حين ان ايزنشتاين هذا يعد احد علامات الطريق فى تاريخ السينما العالمية

« تاريخ المونتاج » Editing ويقدم تاريخا للفيلم الصامت ، من وجهات نظر كبار المخرجين الذين كان لهم الدور الأكبر في استخلاص المعاني الموضوعية للتتابع الفيلمي ، من أمثال المخرج الأمريكي جريفث والمخرج السوفيتي فويفولد بودوفكين ثم آراء المخرج السوفيتي الكبير سيرجي أيزنشتاين والتي أوضح فيها علامة « المونتاج » كعملية هامة في الخلق السينمائي ، بالشكل السينمائي ، ويطلق رايس على منهج جريفث في المونتاج ، مونتاج التركيز الدرامي Dramatic Consertration ، وهو المنهج الذي ينتج عن التنويع في الحركة ، تلك الحركة الناتجة بدورها عن تقطيع أجزاء الحدث « سينمائيا » ، ويرى المؤلف أن طريقة جريفث تمكن المخرج من الاحساس بالعمق في الدراما المقدمة ، وتجعله أكثر قدرة على توجيه انفعالات الجماهير ، لانه يختار التفاصيل ليراها المتفرج في لحظة معينة ، تلك التفاصيل التي لا يرى غيرها عن طريق اللقطة القريبة Clcse up

والحق أن اكتشاف جريفث الرئيسي ينحصر في أن « المشهد السينمائي يجب أن يتركب من عدة لقطات غير كاملة المعنى على أن تكون للضرورة الدرامية ، الحكم في تركيب هذه اللقطات بعد اتمام اختيارها » ·· وعن طريق تقسيم جريفث الحدث الى أجزاء صغيرة ، انما ينوع التركيز ، دراميا ، من نقطة الى أخرى ، ويتحكم بذلك في العمق الدرامي ، كلما نمت القصة وتقدمت · ولعل توصل جريفث الى اللقطة القريبة C.U واستغلاله لها في أفلامه ، قد أثارت مشكلة جديدة أمام مونتير أو مركب الفيلم ·· تمثلت هذه المشكلة في ، كم سيطول بقاء ، تلك اللقطة القريبة ، على الشاشة ؟! ومن هنا أدرك جريفث أهمية « التوقيت » السينمائي ·· وفي اعتقادي أن جريفث هو أول من نحا نحو اللغة السينمائية مبتعدا في ذلك عن المعالجات التقليدية والأصول المسرحية التي كانت متغلغلة في الانتاج السينمائي حينئذ ، وأبرز أمثلتها أفلام أدوين بورتر والتي كانت شديدة الصلة بالمسرح الفوتوغرافي ·

وينتقل رايس لمناقشة أسلوب بودوفكين في المونتاج والمعروف «بالتركيب السينمائي» والذي يقول فيه بودوفكين « المخرج السينمائي لايعتمد على مكان وزمان حقيقيين وانما يعتمد على قطع السليلويد التي سجلت الحركة ، وتخضع تلك القطع خضوعا تاما ، لارادة المخرج اذ يستطيع أن يحذف جميع الفترات التي ليست لها صلة مباشرة بموضوع القصة » مع ضرورة أن تضيف كل لقطة شيئا جيدا ومحددا ، ولقد توصل بودوفكين مع زميله الأكبر كوليشوف انه « يمكن للقطات اذا ما تقابلت بطريقة معينة أن تحمل معاني جديدة لم تكن تحملها من قبل » ·· وأفلام بودوفكين ـ كما يقرر رايس ـ تكون العلاقة بين اللقطات فيها هي ارتباط الفكرة أو العاطفة ، أما جريفث فهو يسعى «للسرد مباشرة» وبذلك فان القارىء اذا أمسك بالكتاب فسيجد بالمقارنة والاستنتاج ، ان هناك « تناقضا » عما قيل في صفحة ٣٥ وما ورد في صفحة ٤٣ ، من الترجمة العربية ·

وانتقال كاريل رايس لعرض منهج سيرجي ايزنشتاين في المونتاج ، انما ينبىء عن التعصب الشديد في الموقف الذي اتخذه المؤلف حيال آراء هذا المخرج السوفيتي الكبير ، دون ما تحليل موضوعي ، يقول رايس « ان القصة في نظر أيزنشتاين ليست الا الهيكل الذي يصب فيه كل الآراء والأفكار التي يريد عرضها ، وهو يضع المغزى والاستنتاجات التي يمكن الوصول اليها من الحدث الأصلي ، في الاعتبار الأول » ويضيف رايس العبرة التي تقطع بعدم المامه الكامل بفلسفة

العبقرية السينمائية الاشتراكية والمتجسدة فى سيرجى ايزنشتاين حين يقول « ان ايزنشتاين لايملك القدرة على الايحاء » ٠٠ ولا شك أن هذه العبارة بما تحمله من دلالات ، غير صحيحة بالمرة، فلقد كانت من سمات مونتاج ايزنشتاين والذى أطلق عليه منهج « المونتاج الديالكتيكى » ومثال ذلك أن ايزنشتاين كان يشير الى الحدث الرئيسى بلقطة تعتبر لقطة «تمهيدية» ثم نرى اللقطة التى تشكل الحدث ذاته وبعد أن نرى اللقطة الهامة والتى تشكل الجديد أو الحدث نجد أنفسنا أمام لقطة أخرى ، واللقطة الثالثة هنا هى لقطة « للتعليق » على اللقطة الثانية ، تلك اللقطة التى تم التمهيد لها فى اللقطة الأولى ٠٠ لقد كان أسلوب ايزنشتاين هو أن يشير للحدث ثم يعلق عليه ، واللقطة التى تشير للحدث انما تدفع المتفرج بشكل ايحائى وتوقعى لانتظار اللقطة التالية بعد أن تم الايحاء بها ٠٠٠ بجانب أنه لا يفوت كاتبنا الكبير رايس أن بوسع المخرج السينمائى أن يطيل الوقت الحقيقى الذى يحدث فى الواقع أو أن يختصر منه ، ليخرج من ذلك بالزمان الدرامى والذى تتيحه له الامكانيات السينمائية ، والخاصية السابقة الذكر انما هى خاصية نوعية للفن السينمائى ، يتمتع بها ولها قدرة على الايحاء ، ولقد أحسن استخدامها ايزنشتاين ، بل وأعطاها استخدامات جديدة ٠

وينهى رايس حديثه عن ايزنشتاين ليناقش التركيب والفيلم الناطق ٠

واذا ماانتقلنا لمناقشة عصب هذا الكتاب أو قسمه الثانى ، فاننا نسترسل مع المؤلف الذى تبدأ بتناول مشاهد «الحركة Action Secquences ٠٠ ومن المناقشة المملوءة بالأمثلة المستفيضة نخلص بعدة نتائج من أهمها ، أن مركب الفيلم يجب أن يراعى مدى وضوح الفكرة لدى الجماهير وذلك عند التعبير عن الحركة أو الحدث ، أى ان تقاطع اللقطات ينبغى الا يثير ارتباك الذهن حيال التسلسل، كذلك فان مركب الفيلم مطالب باليقظة تجاه التغير الذى يتم فى التوتر الدرامى وذلك بأن يعدل من معدل وتوقيت القطع، ولتغطية الفواصل الزمنية بين اللقطات المتتالية ولتوجيه الانفعالات العاطفية الجماهيرية، ويستطيع المونتير أن يفعل ماسبق عن طريق القطع الى لقطات رد الفعل ، ونستطيع الوصول الى هذه اللقطات عن طريق المراقبين الثابتين للحركة النامية ٠٠٠ وحتى نستطيع الايحاء باستمرار الحركة فان على مركب الفيلم ، التنويع فى الصورة ، بالاكثار من تقاطع اللقطات وبتغير زوايا التصوير ، فيما يختص بالجزء الواحد من الحركة The part of the CompleteActton، واذا انتقلنا مع رايس لمناقشة مشاهد « الحوار » ، فسنجد أن مشاهد « الحوار » ، فسنجد أن هناك صعوبة كبيرة فى العثور على مشهد حوار من حيث الابتكار والقوة ، ومن ثم فان رايس ينادى بضرورة معالجة مشاهد الحوار ، معالجة تخلق بها الفعالية فى التأثير ، حيث يرى رايس أن التأثيرات الدرامية لا تجىء من ناحية الصورة فقط ، وانما يمكن لمركب الفيلم أن يزيد التأثير الدرامى باختياره للقطة المناسبة التالية ، مع مراعاة حجم هذه اللقطة ، ويؤكد المؤلف أهمية التوقيت السليم لعرض لقطات رد الفعل ويرشدنا رايس الى أن تداخل جزء من « حوار » لقطة معينة مع « صورة » لقطة أخرى ، يمكن أن ينتج أثرا دراميا معينا ٠ أما الفصل الخاص بالمشاهد المضحكة ففيه يرى رايس « أن أنجح الافلام الكوميدية هى الأفلام التى لايهتم فيها المركب بالواقعية؟! وانما يحصل على أكبر قدر من الفكاهة عن طريق المونتاج » ٠ وفى اعتقادى انه كان يتعين على المترجم أو المراجع بيان ماذا يعنى رايس باللفظة «واقعية» لأن لهذه الكلمة مولولات كثيرة ومتشعبة !٠

وهناك نوعان من الاضحاك ، الأول اضحاك مرئى اى يعتمد على الاضحاك بالصورة وآخر يقوم الاضحاك فيه على «الكلمة الصادرة من الممثل وفى الاضحاك الذى يعتمد على الكلمة كلما زادت حساسية الممثل نحو التوقيت ـ أى زمن استغراق اللقطة على الشاشة ـ قلت مساهمة المونتير فى اثارة الضحك ، اما الاضحاك بالصورة فيكون المونتير والمخرج هما المسئولين فيه ، لأن النكت لا تصبح مضحكة الا بفضل طريقة عرضها أو تركيبها ٠

وقد أورد رايس مثالين جميلين هنا ، معتمدا على وصف المخرج دافيد لين والذى يعتمد بدوره على أسلوب كوميدى قديم يقول « أخبر المتفرج ما تنوى فعله ، أفعله ، ثم أخبره أنك فعلته » ولقد أعجبنى التحليل السيكولوجى لنفسية المتفرج حينما يقول رايس « ان هذا الأسلوب من شأنه أن يجعل المتفرج يسبق الضحية ـ التى سيضحك عليها ـ بمرحله ، وهو الأمر الذى يمنحه الاحساس بالتفوق » ٠٠ وكحقيقة توصل اليها المؤلف يقول : ان اللقطة التى تحدث التأثير المضحك هى تلك اللقطة التى يقدمها المونتير وهو يعلم انها ضد روح القصة ٠٠

أما فى الفصل الخاص بمشاهد المونتاج ٠٠ فيقابلنا فيه اصطلاح « مشهد المونتاج » Montagé Sequence وهو، مشهد تعبيرى لعدة لقطات منفصلة ، وتتصل ببعضها بطريقة المزج أو المسح أو الطبع المزدوج ٠٠ ويطرح الكتاب قضية هامة حين يبحث مدى التشابه بين المونتاج الروسى ومشاهد المونتاج الحديث ، وينتهى عند حد أن كلا منهما يستعمل لقطات متتالية وسريعة وقصيرة وفى انفصال ٠٠ ويرى المؤلف ان على المونتير الالتفات لمهمة مشهد المونتاج تلك المهمة المنحصرة فى انه يسد ثغرة معينة فى القصة على ان يتم ذلك فى خضوع كامل لايقاع الفيلم rythum ، كذلك فان على المونتير أن يتخيل مجموعة اللقطات التى سيشكل مشهد المونتاج واحدة منها ، أى يتخيل وضع مشهد المونتاج بالنسبة لكل التتابع فى المشهد ، ذلك لأن مشهد المونتاج ينقلنا من لقطة لأخرى داخل تتابع فيلمى ٠

ويورد رايس ثلاثة أمثلةمن افلام«المواطن كين» الذى اخرجه أورسون ويلز وفيلم « بيجماليون » وفيلم « فى المدينة » كأمثلة توضيحية ٠

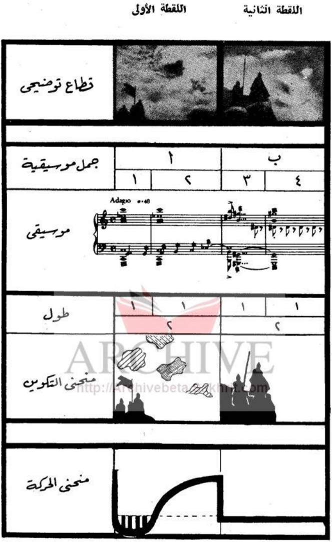
وفى الفصل الخاص « بالريبورتاج التسجيلى » فان المؤلف يكون بصدد افلام تختلف فى طبيعتها وملابساتها اختلافا تاما عن الأفلام العادية ، بل ان المونتاج السينمائى يشكل فى هذه الأفلام « الفيلم ذاته » أى تتبوأ عملية المونتاج الصدارة فى الخلق الفنى ، وتحظى بأكبر قدر من الأهمية ومن هنا فان مهارة المخرج منصبة فى مهارته كمركب ، وعملية المونتاج هنا يجب ان تبدأ « قبل ذهاب المادة المصورة لحجرة المونتاج وبمدة طويلة » ٠٠ والمخرج التسجيلى أكثر حرية فى التحكم فى المادة الخام المصورة اذا ما قورن بزميله المخرج الروائى Feature dir.c or وبذلك فان ما يبعث الحياة فى الفيلم التسجيلى ، يعتمد كل الاعتماد على طريقة تركيب الفيلم ٠

ويروى رايس قول المخرج التسجيلى بول روثا « لن يفيد المونتاج من تقصير اللقطات أو العكس ، فى أن يضيف ذلك ، الحركة على الاشياء ، مالم تكن الحركة موجودة أصلا » وتنطبق عبارة روثا أشد الانطباق على أبسط انواع الافلام التسجيلية فيلم الريبورتاج ، لأن عرضه لدراما الأحداث الطبيعية دون أى استنتاج أو مغزى يسعى اليه يجعله فى مسيس الحاجة لتوفر « المادة الأولية » وحقيقة عميقة يوردها رايس وهى « اذا بدأ

الحادث دراميا عند ما نراه فى الواقع فلا يعنى هذا انه سيبدو كذلك عندما نسجله على الفيلم »وذلك لأننا نحصل على التعبير المقنع للواقع بفضل حسن اختيار اللقطات ، وتركيبها بتتابع وتوقيت خاص ٠٠ فقد نختصر فى الوقت الحقيقى للواقع أو نزيد عليه ، لنصل الى الوقت الدرامى للواقع ، ويقتصر الريبورتاج الناجح على عرض النواحى الأكثر أهمية للحادث دون الغوص فى التفاصيل ٠٠ واذا شبهنا الريبورتاج السينمائى بالمقال الصحفى ، فمن الانصاف أن نطلق على الفيلم التسجيلى التخيلى الذى يخلق ويبتكر بأنه أشبه بمقطوعة من الشعر الخيالى ٠٠ وفى الفصل الخاص بالفيلم التسجيلى التخيلى أن حقيقة تقدير الأفلام التسجيلية انما يرجع لنقلها الاحساسات الداخلية والبواعث الحقيقية » وذلك للحصول على تسلسل خيالى مقنع ، وعلى هذا فان خطورة المونتاج فى التسجيل التخيلى هو سعيه للتعبير عن الاحساس بالجو ، لا مجرد تصوير الحقائق ، وأهم ما يلزم هنا هو توازن احساس المتفرج ونحن ننتقل به من لقطة الى أخرى ، وبناء على ما سبق فان المؤلف يعتبر توازن الاحساس الجماهيرى من لقطة لأخرى ، هامة جدا ويجب الالتفات اليه ٠

وننتقل من عالم الخيال الى عالم الفكر والواقع لنلتقى بالفيلم التسجيلى ذى الفكرة، ثم يجىء ذكر ــ فى السينما الفكرية ــ الفنان الكبير ايزنشتاين الذى لم يكن يبنى المشاهد حول حادث ما أو جزء من حركة وانما حول «فكر» ٠٠ واذا ما استبعدنا ــ وتركنا الحكم للقارىء ــ وجهة نظر رايس المتناقضة والتى يتناول بها السينما الفكرية ، فاننا وكتعليق عابر نجد ان كاريل رايس ينظر بمنظار أسود للفنانين السينمائيين «الاشتراكيين» ويحمل فى جوفه كراهية دينية لنزول « الفكر التقدمى » الى الفن السينمائى ٠٠ ويورد رايس أن أحد تلامذة مدرسة ايزنشتاين هو المخرج البريطانى بازيل رايت ، الذى يرى أن تقابل الصوت والصورة يجب أن يتم بحيث ينتج هذان العنصران سويا شيئين جديدين ولا يتصف به أى من العنصرين على حده ٠٠ ويعتبر رايس أن المونتاج الذى ينتهجه رايت، انما هو طريقة معقدة!؟ ولا يستخدم الا فى نطاق ضيق ٠ وينتقل الى مثال آخر من أفلام المخرج همفرى جينجز التى يرى انها تقوم على سلاسة فى العرض ٠٠ ومن رأى المؤلف « انه اذا كان للافلام ذات الفكرة أن تتطور فى المستقبل فعليها ان تسير على الأسس التى وضعها جيننجز بدلا من التى سار عليها ايزنشتاين » ٠٠ والحق ان المجال لا يتسع فى عجالتنا هذه ، لتحليل العبارة السابقة البعيدة عن التحليل ، والتى تحمل كراهية شديدة لنزول الفكر التقدمى الى مجال الابداع السينمائى وانما سأفرد دراسة مستقلة لبحث افتراءات رايس على السينما الفكرية ورائدها أيزنشتاين فى مجال آخر ٠

أما الفصل الخاص بالصوت فى الفيلم التسجيلى فنواجه فيه بأن طبيعة الافلام التسجيلية هى التى فرضت ضرورة التوسع فى تجارب استخدام « الصوتيات » فى التعليق ٠٠ وتتضح القيمة المطلقة للمونتاج فى الافلام التسجيلية على أساس انه « لايوجد ايقاع فى كل لقطة على حده !! ولا يصبح للقطات أى قيمة ايقاعية الا عندما يتم التركيب ٠٠ ونود أن ننبه أستاذنا كاريل رايس بأن كل لقطة على حدة تحتوى فى حد ذاتها على ايقاعها الداخلى والخاص لأن من مجموع الايقاعات الداخلية لكل لقطة والتى تمثل الجزئى » يتكون الايقاع العام للمشهد فى الفيلم ومن مجموع المشاهد يتكون الايقاع العام لفصل من فصول الفيلم ومن مجموع الايقاعات «الداخلية» للفصول نجد رتم الفيلم النهائى والمنبثق أساسا من الايقاع الداخلى لكل لقطة على حدة ٠٠



كان ايزنشتاين يشير الى الحدث الرئيسي بلقطة ، تعتبر تمهيدية ، ثم نرى اللقطة التى تشكل الحدث ذاته ، وبعد أن نرى اللقطة الهامة ، والتى تشكل الجديد أو الحدث ، نجد أنفسنا أمام لقطة أخرى ، واللقطة الثالثة هنا هى لقطة «للتعليق» على اللقطة الثانية ، تلك اللقطة التى تم التمهيد لها في اللقطة الأولى .

ومن هنا فاننى اعترض على النتيجة التى توصل اليها رايس والخاصة بأن كل لقطة على حدة لاتملك ايقاعها الخاص ، فأقول ان لكل لقطة ايقاعا ولكن هذا الايقاع يختلف بانخراط اللقطة فى لقطة تالية لها الا ان ذلك لايمنع وجود ايقاع خاص لكل لقطة ٠

وفى الافلام التسجيلية التخيلية لم يعد الصوت ملحقا اضافيا بل أصبح يتساوى مع الصورة ، ويشير رايس الى أن الصورة قد تقدمت وتطورت فى حين أن «الابتكار فى شريط الصوت قضية لم يتم تطويرها بالقدر المقبول أو الكامل » ٠

أما فى الافلام التعليمية فاننا نكون بصدد مونتير هدفه الوضوح وسلامة العرض المنطقى ، والتقدير الصحيح والمستمر لمدى استيعاب المتفرج وعلى ذلك يجب أن نتوقع الابتعاد عن اللقطة الناتجة عن قطع خشن والسعى نحو السلاسه فى العرض ٠

ويفرق المؤلف بين الأفلام التدريبية والدراسية تفريقا ناتجا عن الهدف من كل منهما ، فالافلام التدريبية تتجنب أى ارتباك فى ذهن المتفرج من ناحية التتابع ، أما الدراسية فالتسلسل فيها لا ينبع من تسلسل الحركة ، بل من تسلسل الأفكار وتطورها ٠

وما ان نصل الى الجرائد السينمائية ، حتى يطالب رايس بأن تكون موادها مركزة ومشيرة ومسلية للمتفرج من ناحية الصورة ، وتلقى هذه الجرائد الاضواء « الجانبية » على الاحداث ، وهذه الجانبيات هى التى تصلح كمادة للجرائد أكثر من الحقائق الرئيسية ذاتها ٠٠ ومن هنا فمهمة المركب تنحصر فى الحصول على تسلسل سلس ، وأن يؤكد النقاط الواجبة التأكيد ، على أن أهم ما يثير رد الفعل لدى المتفرج هو صوت المعلق وطريقته وسرعة القائه ثم مدى التنويع فى نغمة الصوت » وموضوع « الفيلم المجمع » هو ختام الفصل الثانى من الكتاب ، حيث تعتبر الافلام المجمعة من لقطات سابقة ، وسيلة تستغل لانتاج أفلام تاريخية فى صيغة درامية ، وهذه اللقطات لا يصبح لها مغزى الا بعد مرحلة التركيب ٠٠٠ وبوضع لقطة قبل أو بعد أخرى يمكن تزوير الحقائق التاريخية ، الأمر الذى يتطلب الدقة والاخلاص التاريخيين ، وكما يقول الكاتب بيتر بيلس انه ما دام مركب الفيلم قد أحسن الاختيار منذ البداية فان لقطة لديه لن تتبقى دون مكانها الصحيح ، وينبغى أن تكون لدى المونتير حساسية شديدة تدفعه لاختيار اللقطة « المناسبة » ووضعها فى مكانها الصحيح بالنسبة للفيلم الذى يجمعه ٠

أما القسم الثالث والأخير من هذا الكتاب فيتحدث فيه المؤلف عن « الحرفيات التركيبية » مذيلة ، باستنتاجات هامة ، ويقسم رايس الموضوع الى قسمين ٠٠ الأول خاص بالصورة والثانى بالصوت ٠٠٠ وفى القسم الأول يتحدث المؤلف عن نظرية المونتاج مستشهدا بالتبرير النظرى والسيكولوجى للمونتاج والذى كتبه الناقد البريطانى أرنست لندجرن فى كتابه « فن الفيلم » ٠٠ وأول ما يتطلبه التسلسل هو « توافق الحركة بين كل لقطتين متتاليتين » وهنا ينبرى الكتاب لتحليل توافق الحركات المتتالية ٠٠ وينتقل بعد ذلك لمدى التغير فى حجم الصورة وزاوية التصوير ثم تأثير أوضاع آلة التصوير وكيفية تعبيرها ، ومن ضرورة المحافظة على الاتجاه ينتقل رايس لتأكيد ضرورة وضوح التسلسل ويشير الى توافق درجة الصورة ومنها الى استمرار الصوت ـخلال تجربة بازيل رايت ـ ويستشهد بمشاهد من فيلم «لقد وصلوا المدينة» اخراج سيدنى كول ٠

ثم يناقش رايس قضية « التوقيت » حيث يستطيع المخرج الوصول عن طريقه ، للزمان الدرامى السينمائى ٠٠

ومن التوقيت نصل الى « السرعة فى الايقاع وتأثيرها على المونتاج » ٠٠ أما القسم الثانى من آخر أبواب الكتاب والمتعلق بحرفيات التركيب الصوتى ، فيوضح فيها الكتاب ان هناك ـ بالضرورة ـ اختلافا فى المعالجة السينمائية للصوت عنها فى الصورة ٠٠ وينزع رايس لتحليل جميل لمكونات شريط الصوت ٠٠ ثم ينتهى الى مناقشة العلامة التركيبية بين الصوت والصورة ٠

***

وختاما فلقد طوينا الكتاب عرضا وتعليقا ، ولكننى سأعمد الى تسجيل بعض الملاحظات :

أولا : فيما يختص بالترجمة والمراجعة ،فاننى أشكر بعمق الجهود الجليلة التى قام بها المترجم أحمد الحضرى والمراجع أحمد كامل مرسى ، حتى تم تقديم هذا الكتاب الهام الى المكتبة السينمائية العربية ٠٠ الا أننى كنت أتوقع من المترجم أو على الأقل من المراجع ، اذا كان المترجم لم يدرك ، كنت أتمنى لو قام أحد منهما بتقديم «تعليقات» فى أسفل الصفحة ، توضح المصطلحات السينمائية والتى على درجة من الأكاديمية والتخصصية والتى يصعب فهمها على القارىء العادى ، وذلك لأن الهدف الأساسى من ترجمة مثل هذا الكتاب هو نشر الثقافة السينمائية بين الجماهير ٠٠ كذلك ومن جانب آخر فلقد كان ينبغى على الاستاذين المترجم والمراجع أن يعلقوا على الهجوم الخبيث الغير موضوعى والسب العلنى فى أحايين كثيرة والذى وصل اليه كاريل رايس فى حديثه عن مفاهيم « سيرجى ايزنشتاين » حيث يقول ان مفاهيمه « شاردة » هكذا وبمنتهى الهول ودون أدنى اشارة للفلسفة الديالكتيكية التى أفرزت مونتاج ايزنشتاين ومنهجه الفكرى ثم السينمائى ٠٠ ثم نجد شبه موافقة من المترجم والمراجع بل ولا أدنى تعليق ٠

ثانيا : على الرغم من خلافى مع كاريل رايس فى بعض مفاهيمه وآرائه والتى سبق أن علقت عليها ، الا أننى أشهد له بوعى عميق وكامل فى بعض القضايا التى تناولها ، هذا الوعى الذى يجعل بعض فصول هذا الكتاب مرجعا قيما لكل باحث جاد ٠٠ كذلك فان من الواجب أن نشهد بأن رايس يملك رشاقة واضحة فى أسلوبه الانجليزى وحساسية فى الكتابة وادراكا لنفسية القارىء ٠٠ وعلى الرغم من أن بعض هذه الحساسية قد ضاعت والنسخة تنتقل من الانجليزية الى العربية ، الا أن ذلك لا يثنينا عن تقديم الشكر مرة أخرى للمترجم أحمد الحضرى، عن كل الجهود التى بذلت لاخراج الكتاب ٠

ثالثا : بالنسبة لمراجعة هذا الكتاب ، فلقد قام بتلك المهمة الحساسة المخرج أحمد كامل مرسى، والذى له فضل ترجمةومراجعة العديد من الكتب التى تزخر بها مكتبتنا السينمائية العربية ، ومن هنا فلقد أدهشنى انه لم يقم بالتعليق على آراء رايس ٠٠ بجانب أن نتائج هامة وأراء جوهرية كانت فى بعض الأحيان مكتوبة بخط عادى فى الوقت الذى نواجه بسطور غير هامة على الاطلاق تنال الاهمية وتلفت النظر اليها على أساس انها مكتوبة بخط أسود ثقيل ٠

رابعا : المثقفون السينمائيون يشكرون الدار المصرية للتأليف والترجمة على اصدارها هذا الكتاب القيم ولكننا نذكرها ـ حتى تنهض فى المستقبل ـ بأنهذا الكتاب قد صدر منذ خمسة عشر عاما ٠٠ على أن الرجاء الذى نتوجه به ونستشعر الأمل الكبير فى تحقيقه فى ظل اشراف الأستاذ الجليل محمود أمين العالم على مؤسسة التأليف ، هو ملاحقة المؤسسة بطاقتها الضخمة لكل مكتوب جديد عن السينما يظهر فى البلاد الاشتراكية ، مع الحرص كذلك على تغطية أهم الكتب الجديدة التى تظهر فى العالم السينمائى الرأسمالى ٠٠ اننا فى حاجة ماسة لأن يتنفس واقعنا السينمائى كل كتاب سينمائى توفرت فيه الأهمية والجدة والمعاصرة ، والأمل كبير فى ظل الاشراف الجديد على المؤسسة ٠

أحمد فؤاد درويش

أخبار الكتاب العربي في العالم

يقدمه مدير التحرير

● تقوم الآن « **مديرية احياء التراث القديم** » في « **وزارة الثقافة والارشاد القومي** » في الشقيقة العزيزة « **سورية** » بطبع القسم الرابع من كتاب «**تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب**» لابن الفوطي ، وذلك في المشروع الكبير الذي نهضت به هـذه الوزارة لاحياء ذخائر التراث العربي بعد تحقيقه تحقيقا علميا يقوم به علماء لهم في هذا الميدان أيام لا تجحد وجهود لاتنكر ٠

وقد عهدت هـذه الوزارة الى عالم جليل من علماء الشقيق العـزيز « العراق » هو **الدكتور مصطفى جواد** ، فقام بتحقيق الجزئين الرابع والخامس ، وهما ما عثر عليه من أجزاء هـذا الكتاب ٠ وقد نشرت الوزارة خلال الاعوام الثلاثة الماضية ثلاثة أقسام من الجزء الرابع ثم بدأت في طبع القسم الرابع من هذا الجزء ٠

ولقد حفظ المؤلف كمال الدين عبد الرزاق ابن تاج الدين أحمـد المعروف **بابن الفـوطي** الشيباني الحنبلي الذي ولد ببغداد سنة ٦٤٢هـ وتوفي بها سنة ٧٢٣ هـ ـ في كتابه هـذا ، كما يقول المحقق : « فوائد كثيرة وفيرة في الادب والشـعر والتاريخ والنثر الاخواني والنثـر الديواني ، لا توجد في كتاب غيره ، فضلا عن التراجم التي كتبها لأعيان عصره وأماثل مصره ، في عصر قل فيه المؤرخون باللغة العـربية في البلاد الشرقية خاصة ، ولا سيما العراق والجزيرة ٠٠ وذلك لغلبة اللغة الفارسية في عصر المغول ٠ وان هذا المعجم الوسيع المبني على الألقاب أولا ، يدل دلالة واضحة على كثرة مجموعات ابن الفوطي التاريخية ووساعة مطالعاته ، ولا غرابة في ذلك فقد كان يقيد وينقل ويترجم ويستشهد ويستملي ويستكتب ويستقرىء طول سيرته العلمية وسيرته الأدبية » ٠

وقد صدق ابن حجر العسقلاني حين قال عنه في كتابه « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» انه « كان روضة معارف ، وبحر أخبار » ٠ وقد تهيأ له من المعارف ما لم يتهيأ لغـيره ، اذ كان يقوم على شئون أعظم دارين للكتب في عصره ، وهما : دار كتب المدرسة المستنصرية في بغداد ، ودار كتب الرصد بمراغة في أذربيجان ، ولذلك جاء كتابه أجمع كتب التـاريخ للتراجم ذوات الألقاب **منذ أيام الجاهلية حتى الربع الأول من القرن الثامن للهجرة** ٠



● ومن كتب **التراث** التي نشرتها أيضـا في هذه السلسلة « **الازمنة والانواء** » لابن الاجدابي

ومن كتب التراث التى نشرتها أيضا فى هذه السلسلة كتاب « الأزمنة والأنواء » لابن الأجدابى ابراهيم بن اسماعيل الطرابلسى المغربى المتوفى حوالى سنة ٦٥٠ هـ ٠ وقدحققه **الدكتور عزه حسن** بالاسلوب العلمى الذى حقق به طائفة كبيرة من آثار التراث العربى مثل « **ديوان ابن مقبل** » و « **ديوان بشر بن أبى خازم** » مما نشرته هذه الوزارة ، و « **الاضداد فى كلام العرب** » لأبى الطيب اللغوى و « **النوادر** » لأبى مسحل الاعرابى بن حريش مما نشره المجمع العلمى العربى بدمشق ٠

وكتاب « **الازمنة والانواء** » الذى ألفه ابن الاجدابى يضم زبدة علم الازمنة والانواء عند العرب فى الجاهلية والاسلام الى جانب ما أخذوه من الامم الاخرى التى اتصلوا بها بعد الاسلام ، كما يضم فصولا مستمدة من علوم الهيئةوالنجوم التى نشأت عند العرب بعد الاسلام ٠

وقد استطاع ابن الاجدابى فى كتابه هذا تبسيط فن الأزمنة والأنواء وتقريبه من أذهان قرائه بدون أن يذكر التفاصيل الجزئية الدقيقة أو يحشوه بالآراء المختلفة والنظريات المتضاربة ٠

وللكتاب من كل هذا **جوانب أربعة : علمية وأدبية ولغوية وتاريخية** ٠ فهو من **الناحية العلمية** يبين لنا ما كان معروفا عند العرب فى العصر الجاهلى من معارف فى هذا الباب ، ومن **الناحية الادبية** يفيد فى فهم كلام العرب الذى ترد فيه أشياء عن الازمنة والانواء فى أشعارهم وأسجاعهم وأمثالهم مع شرح لألفاظها وايضاح لمعانيها ، ومن **الناحية اللغوية** فانه يفيض بالالفاظ التى أصبحت من اصطلاحات هذا الفن مما يمهد السبيل الى وضع معجم لغوى يضم شتات هذه الالفاظ ويكون خطوة فى سبيل وضع المعجم التاريخى للغة العربية وهى بحاجة الى مثل هذا المعجم ، وأما من **الناحية التاريخية** فانه يفيد الباحثين فى مسألة تاريخ العلوم فى الحضارة العربية ويعتبر مرجعا لهم ٠ وهو مع كتاب « **الانواء** » لابن قتيبة وكتاب « **الازمنة والامكنة** » للمرزوقى يؤلف ثالوثا فى هذا الفن لم يؤلف بعده شىء آخر ويعوضنا عن كتاب « **الأنواء** » **لأبى حنيفة الدينورى الذى فقد** ٠

وأخيرا ، فالكتاب مرجع لكثير من المعارف التى مازالت حية متداولة مستعملة فى أيامنا الحاضرة ، فما زال العرب فى جميع أقطارهم ، من المحيط الى الخليج ، يستعملون السنة العربية ، وهى السنة القمرية التى ندعوها اليوم بالسنة الهجرية ، ويستعملون كذلك السنة الشمسية فى معظم أقطارهم ٠والفصول وأوقاتها من المعارف الاولية البديهية التى لا يسع أحدا من الناس جهلها وهى مما يتعلمه الناشئة فى المدارس ٠ وأسماء الشهور السريانية فى بلاد الشام والعراق ، وكذلك أسماء الشهور الرومية فى مصر وأقطار المغرب العربى ما زالت مستعملة حتى اليوم ٠



● وثمة كتاب **ثالث** نشرته هذه الوزارة هو كتاب « **اعلام الورى بمن ولى نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى** » **تاليف محمد بن طولون الصالح الدمشقى** ، واسمه بالكامل محمد بن على ابن محمد بن على بن خمارويه بن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ هـ ، أى انه من سلالة أحمد بن طولون على ما يرى بعض العلماء ، وقد قام **بتحقيق هذا** الكتاب **الاستاذ محمد أحمد دهمان** الذى حقق كتابا آخر لابن طولون هذا ، هو كتاب « **القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية** » وقد نشره سنة ١٣٦٨ هـ مكتب الدراسات الاسلامية بدمشق ٠

كما نشرت «الدار المصرية للتأليف والترجمة» فى مصر كتابا آخر للمؤلف هو « **مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان** » **بتحقيق** الدكتور **محمد مصطفى** ، وذلك سنة ١٩٦٢ ٠

ويقول **الاستاذ دهمان** فى مقدمة الكتاب « ان العصر المملوكى هو أولى العصور بالدراسة والتحليل والاعتبار ، ذلك أننا فى سورية

وفلسطين ولبنان ومصر والحجاز واليمن ، بصورة خاصة والعالم الاسلامى بصورة عامة ، متصلون اتصالا وثيقا بهذا العصر فى ثقافتنا وتفكيرنا وأخلاقنا وعاداتنا وما الى ذلك من شئون • ورغما عن العهد العثمانى الذى فصل بيننا وبين العصر المملوكى بنحو أربعة قرون لا نزال متأثرين الى حد بعيد بالعصر المملوكى ، فأسواقنا وحماماتنا وخاناتنا وقيسرياتنا وجوامعنا ومساجدنا ومدارسنا جلها مملوكية » •

هذا الى جانب ما ظهر فى هذا العهد من نتاج فكرى حيث ألف ابن منظور معجم «لسان العرب» و «مختار الاغانى» وألف الفيروزابادى « القاموس المحيط » وابن واصل كتاب « تجريد الاغانى » ووضع ابن مالك « ألفيته » وكتب ابن خلدون « مقدمته وتاريخه » وما ألفه ابن خلكان وابن كثير وابن تغرى بردى والمقريزى والقلقشندى وغير هؤلاء من علماء فى اللغة والادب والفقه والتاريخ ودوائر المعارف •

ويقول المحقق ان قيمة كتاب « **اعلام الورى** » أنه يكشف لنا المجهول من أسماء تراها ماثلة على شوارع وأحياء وبنايات لا نعرف عنها شيئا ، وأن الكتب التى تتحدث عن العهد المملوكى ممتلئة بالاخبار والحوادث عن مصر والقاهرة ونحن فى حاجة الى الكتب التى تذكر الحوادث والاخبار فى البلدان الاخرى التابعة للقاهرة • وهذا الكتاب يسد هذا الفراغ •

● هناك مفاوضات توشك أن تنتهى الى نقل **معهد المخطوطات** بجامعة الدول العربية الى الكويت ليستطيع فى ظل المشروع الثقافى الكبير الذى رصدت له حكومة الكويت مبلغا ضخما من المال أن يعمل على اسداد العلماء بما فى خزائن العالم من مخطوطات التراث العربى التى يصورها، ثم العمل على نشر هذا التراث فى طباعة أنيقة وبأثمان ميسرة لكل فرد • فان الميزانية المحدودة لهذا المعهد تقف حجر عثرة أمام جهوده ، مع أن عليه رسالة كبرى يجب أن يبذل له فى سبيل تحقيقها العون الكبير •

● « **مشاهد الأئمة بالعراق** » كتاب انتهت من وضعه الدكتورة **سعاد ماهر** الأستاذه بقسم الآثار بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، تناولت فيه دراسة التحف الأثرية المهداة لمشاهد الأئمة بالعراق ، وبعضها يرجع الى القرن الرابع الهجرة •

وهذه الهدايا عبارة عن أغطية للأضرحة وقناديل وشمعدانات ذهبية وفضية ومخطوطات أثرية أكثرها مصاحف كتبها أشهر الخطاطين •

ومن هذه الهدايا سجاجيد فاخرة ، بينها سجادة مرصعة بالأحجار الكريمة ، ويبلغ عدد مافيها من هذه الأحجار ٤٧ ألف حجر ، ولحمة هذه السجادة وسداها من الذهب والفضة • كما يبلغ وزن القنديل الذهبى الواحد ستة قناطير •

وقد اكتشفت الدكتورة سعاد ماهر غطاء ضريح يرجع عهده الى الدولة البويهية فى القرن الرابع الهجرى يقدم للباحثين مرجعا له قيمة تاريخية وأثرية الى جانب دراسة الضريح من الناحية المعمارية •

ومن مؤلفات الدكتورة سعاد ماهر وبحوثها التى نشرتها «**الحصير فى الفن الاسلامى**» و«**والخزف التركى** » ، (**القاهرة القديمة وأحياؤها** » و « **القباطى** » •

● نشر « **معهد الدراسات العربية العالية** » بجامعة الدول العربية كتاب « **اسرائيل فى التوراة والانجيل** » وهو مجموع المحاضرات التى ألقاها الاستاذ **الدكتور مراد كامل** على طلبة قسم الدراسات الفلسطينية بهذا المعهد •

وقد قدم له بعرض لتاريخ فلسطين أثبت فيه بعد عرض آيات من سفر الملوك وسفر العدد والتثنية وبعد استعراض لمراحل التاريخ القديم أن وضع فلسطين لم يتغير منذ أربعين قرنا ، فقد حل العالم العربى محل دول الشرق القديم • ثم قال : « ولقد قال التاريخ كلمته فى هذا منذ ٢٤٠٠ سنة خلت » •

ثم ينتقل الى القول بأن **من يقرأ التوراة والانجيل قراءة متبصر** ، فاهم للالفاظ ، مدرك للمعانى ، **يتضح له بصورة لا تقبل الشك انه لا يوجد فيهما أى أساس لما يدعيه الصهيونيون، وانه لا سند لهم فيهما فيما يزعمون ، وهو أن اقامة دولة يهودية حديثة فى فلسطين ، يعززها الكتاب المقدس ، أو يتطلبها وحى الانبياء فيه** •

ويناقش الدكتور مراد كامل بعد ذلك زعم الصهيونيين ودعواهم بأن فلسطين أرض الميعاد ويقف عند ثلاث مسائل ذات أهمية هى: لمن أعطى الوعد الالهى ؟ ما هى حدود الارض التى وعد الله بها ؟ هل كان الوعد غير قابل للنقض أو هل كان مشروطا •• وبعد أن يناقش هذه المسائل الثلاث مناقشة علمية رصينة يتكلم عن اسرائيل وهل هى تحقيق لنبوءة الكتاب المقدس فيقول انه لم تقر أية محكمة أهلية أو دولية من المحاكم التى شغلت بالمسألة المعقدة لفلسطين أن النبوءات القديمة تعطى صفة قانونية فى بعض أو كل الادعاءات السياسية للصهيونية فى الاراضى المقدسة • وينتهى الى أن **دولة اسرائيل لايمكن أن تعد من وجهة النظر المسيحية الا دولة سياسية** ، عليها أن تواجه نصيبها من البقاء الى الزوال ، **ولا يمكن أن تعتمد على أنها هى « اسرائيل الله » لأنهذا يخالف الانجيل فى أهم نقطة من تعاليمه، ويتعارض مع أساس العقيدة المسيحية** •

ويذكر الدكتور مراد كامل فى الفصل الذى عقده عن **مدى ادراك المسيحى لمعنى اسرائيل** — أن الكنيسة المسيحية هى التى شعارها « شعب الله المختار » ، وأن اليهود برفضهم المسيح انما يزيفون ذلك الشعار لهم ويدعونه لأنفسهم وهم بعيدون كل البعد عنه • فكل مؤمن بالمسيح هو من شعب الله المختار مهما كان أصله ونشأته •

ويذكر أن المجمع المسكونى فى الفاتيكان قد أصدرأخيرا وثيقة تحدد علاقة الكنيسةالكاثوليكية بالاديان الاخرى ، وفيها تكذيب قاطع لدعوى اليهود أنهم شعب الله المختار ، وذلك على أساس أن اليهود فقدوا صفتهم بعد مجىء المسيحوتكوين الكنيسة •



● « **أمين الرافعى ، زعيم صحافة الرأى فى مصر** » رسالة يتقدم بها **الاستاذ توفيق أحمد البكرى** مدير معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية الى كلية الآداب (قسم الصحافة) بجامعة القاهرة للحصول على درجة الدكتوراه •

وهذه الرسالة كان الاستاذ توفيق البكرى قد أعدها لذلك **منذ عشرين عاما** ، ولكن ظروف العمل فى مناصبه التى تولاها بجامعة الدول العربية كانت لا تهيىء له الفرصة وقتذاك لتقديمها ، ولكنه لم يزل يتحين الفرصة ليظفر بأملين عزيزين معا : الحصول على تلك الدرجة العلمية ، وانصاف رجل وطنى نادر المثال كأمين الرافعى اتخذ الصحافة عملا يخدم عن طريقه

وطنه ، لم يجر وراء جاه أو كسب أو ادعاء أو تمسح بالحاكمين أو تزلف للقصر وصنمه ، بل اتخذ الوطنية عبادة يجب فيها التطهر ومحاربة الاهواء والتجرد عن الاعراض الدنيوية الزائلة ، وكرس قلمه للدفاع عن قضية الجلاء وحرية الوطن ، واقامة حياة دستورية سليمة فى البلد، وكان صاحب رأى يفتديه بصحبته وجهده وما يملك ، وصاحب عقيدة لا يتزحزح عنها مهما لقى من عنت ، واضطهاد ، وصاحب قلم لا يسف فى نقاش ٠٠ حتى لينعاه خصمه فى الرأى **الأستاذ عبد القادر حمزه** فى جريدة «**البلاغ**» فيقول : آنه « لا يصدر فى اعتقاده عن وحى يوحى اليه ، بل عن الرأى الذى يرى بينه وبين الله وأمام وطنه أنه الحق وأنه الواجب الذى يجب أن يقوم به الجميع ٠ فان أحب فانما يحب فى الله ، وان أبغض فانما يبغض فى الله والوطن ، وشفيعه حين يخطىء فى الحب والبغض أن قلبه عامر بالاخلاص والايمان ٠ ولهذا كان وفيا كل الوفاء لمن يحب ، عدوا شديد العداء لمن يبغض ٠ الا أن فى عداوته خلة هى من مفاخره الصحافية ، وذلك أن قلمه طاهر نبيل لم يسف الى الشخصيات فى وقت من الاوقات ، ولم يجر قط بمبتذل الكلام »

وقال فيه **الاستاذ عباس محمود العقاد** : « لقد عاش أمين لرأيه وعقيدته فكان مثلا فى الثبات ، وعنوانا شريفا لصناعة الصحافة ، وفردا من الافراد القلائل الذين رفعوا هذه الصناعةالنبيلة عن طمع الطامعين وشبهة المشتبهين ، وحسب الصحافة من فقيدها هذه الحلية التى تحلت بها من كريم خلاله ونبيل سجاياه » ٠

وقال فيه **أحمد شوقى** :

قيل : حلله ٠ قلت : عرق من التبـ
ـر أراح البيان والتحليلا

لم يزد فى الحديد والنار الا
لمحة حرة وصبرا جميلا

لم يخف فى حياته شبح الفقـ
ـر اذا طاف بالرجال مهولا

جاع حينا فكان كالليث آبى
ما تلاقيه يوم جوع هزيلا

ثم قال :

عاش لم يغتب الرجال ، ولم يجـ
ـعل شئون النفوس قالا وقيلا

ومن الطرائف التى نذكرها هنا ان من بين من رثوا أمين الرافعى **فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى** مدير الجامعة الازهرية ــ وكان وقتذاك طالبا ثانويا بمعهد أسيوط بقصيدة طويلة ٠ وقليل من الناس من يعرفونه شاعرا ٠

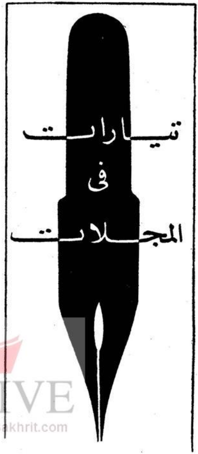
وبعد ، فان الرسالة التى يتقدم بها الاستاذ **توفيق أحمد البكرى الى الجامعة** انما هى رسالة وطنية قبل أن تكون رسالة جامعية ،٠ وكلاهما جديران بالتقدير ٠

● ويقوم **الاستاذ محمد الخولى** بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بتحقيق «**ديوان أبى الفتح البستى** » على بن محمد بن الحسين البستى ، ولد بمدينة بستبأفغانستان ، اختاره أبو منصور سبكتكين للعمل فى ديوانه حينافتتح هذه المدينة ثم خدم ابنه السلطان محمود بن سبكتكين ٠ وتوفى فى « بخارى » سنة ٤٠٠ هـ ٠٠ وكان صاحب أسلوب نثرى أنيق ، وله القصيدة المشهورة التى يقول فى مطلعها : «**زيادة المرء فى دنياه نقصان** » ٠ وفيها البيت المعروف :

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الانسان احسان

وديوان البستى كان قد طبع فى بيروت سنة ١٩٢٤ ٠ ولكن **الاستاذ الخولى** قد ظفر بنسخ خطية فريدة للديوان ، **كما جمع قدرا من شعر البستى لم يرد فى الطبعة السابقة** ، وسيقدم للديوان بدراسة وافية للشاعر وعصره ٠ وهذه الدراسة مع تحقيق الديوان موضوع رسالة يتقدم بها المحقق الى كلية اللغة العربية بالجامعة الازهرية للحصول على الماجستير فى الآداب ٠

حسن كامل الصيرفى



تيارات فى المجلات والصحف

يقدمها
جمال بدران

● إن النقد والنقد الذاتى من أهم الضمانات للحرية ... !

● إن الثورة ليست عملية هدم أنقاض الماضى ، ولكن الثورة هى عملية بناء المستقبل « الميثاق »

الكلمة الطيّبة

قيل ان حديثا دار بين عمر بن الخطاب وبين رجل من العامة ، ثم انتهى الحديث بكلمة غاضبة من الرجل .. هى .. اتق الله .

وبهت القوم ، ووجهوا اليه من فارغ القول ما يندى له الجبين ، ثم سأله واحد منهم متعجبا .. أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟!

وهنا رفع ابن الخطاب رأسه الى القوم وهو يقول « ثقوا أنه لا خير فيكم ان لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا اذا لم نقبلها منكم » .

لم يغضب خليفة المسلمين من كلمة الرجل ٠٠ بل أغضبته كلمات الرياء ٠٠ فأخرسها بكلماته الطيبات ٠٠ تلك التي تلجم الأفـــواه الجوفاء لتفسح الطريق أمام الكلمة الصريحة ، الكلمة النابعة من القلب حتى ولو لم تجد اللسان الذى تنزلق عليه بحكمة واتقان ، وعندمـــا استطابها رضى الله عنه ٠٠ تذوق فيها لذة الصفاء والنقاء ٠٠ حتى ولو كان فيها ما يخدش ٠٠ لأنه خدش رقيق أشـــبه بمصل الحصانة من الانبهار بالاطراء ، أو الانخداع بهتاف النفاق ٠ ولهذا فقد طربت أذن أمير المؤمنين لأمر تقوى الله ٠٠ فأفسح لهذا الالتزام رحاب صدره ٠٠ وزجر كل من لا يريد أو لا يجد فى نفسه الشجاعة للنصح به ، وجعل الخير قرين اسدائه ، وصنو حسن تقبله ٠٠ مهما اختلفت درجات أطراف هذا الصنيع ٠

وتقوى الله معنى جامع لشتى جوانب الكلمة الطيبـــة ٠٠ فهى لا تقتصر على جانب الدين والعبادة ، وانما تمتد الى ألوان الســـلوك كافة ، بل تتناول أيضا مختلف أنواع الفكر وقوالبه ٠٠ ومن هنـــا صارت الكلمة الطيبة هى هذه الكلمة ذات الوزن ٠٠ ذات القيمة فى أسر الألباب وتملك المشاعر ٠ فاتقاء غضـــبة الله ، والخوف من وخزة الضمير ، والرجفة من تأفف مظلوم ، والأرق لجوع طفل أو عاجز ، والخجل من ارتكاب المعصية ، والتعالى عن بذىء القول أو هـــابط المعرفة والتعفف عن الايذاء ، والعفو عند المقدرة ٠٠ كل هذا من تقوى الله ٠

لكن الكلمة الطيبة لا تكتفى بالمنع دون السماح ، أو بالسلب دون الايجاب ٠٠ وانما هى تقيم وتبنى ، تقوم وتهـــدى ، بل انها تغضب وترضى ، فتزجر وتطرى ، وتقسو وتحنو ٠٠ وما الفيصل بين الكلمه الطيبة وما عداها من غير الطيبات الا خيط رفيع ، يحتاج الى حـــدة الابصار وعمق النظرة ٠٠ ألا وهو حسن القصد وصدق الطوية ٠

والكلمة الطيبة أقرب الى الألسن من أية كلمة عداها ، فهى على لسان العامى البسيط كما على لسان المثقف والمعقد ٠

فى العمل ٠٠ تتردد كلمة « اتق الله » ٠٠ فلا تهمل ، ولا تنقص، ولا تغش ، ولا تتراخى ٠٠ بل حاول ألا تخطىء ، وأن تكمل وتبدع ، وأن تتقن وتسرع ٠٠ بالتعاون والحب ، بالغيرية والتفاهم ٠

فى اللهو ٠٠ تتردد الكلمة نفسها « اتق الله » ٠٠ فلا تتهـــالك أو تنغمس ، لا تعب فلا تقنع ، لا تتهوس فتضيع قيمتك بين الأرجل — لأنك فقدت سيطرتك على أعز ما يميز الانسان ٠٠ على العقل ٠

فى العلم ٠٠ هى الكلمة ذاتها ، تدور بين جدران المعمل مثلمـــا تنبض فى صدر العالم ومخه ، « اتق الله » فيما تبحث وعما تكشف ، فلا تغتر بما اخترعته ، أو تكتفى بما توصلت اليه ، ولا تنحرف الى غير ما كنت تستهدفه من صالح الانسان ، وتثبيت دعائم العمران ٠٠ بل لتعم روح العلم الحق ، فتطمئن النفوس ٠

فى المال ٠٠ لا بد من تقوى الله ٠٠ فى الرزق وموارده ، فى كيفية الوصول الى المورد والحصول على الرزق منه ، فى مدى ما يشبع بالقناعة ، وآماد ما يصاب منه بالجشع ، فى الموازنة بين الجهد وما أنتجه الآدمى ، وبين قيمة ما بذل فعاد عليه ما استحقه أو مالم يستحقه من أجر أو راتب العمل ٠٠ ذلك لأن تقوى الله فى مثل هذه المعاملات هى التى تكسبها المسحة الانسانية ، بالتعاطف والمنح ، بالاكتفاء بقدر دون التمادى فى الاكتناز ، بالتراضى عند حد يسمح لكل واحد أن يسد أوده ويصلب عوده ٠٠ فتطيب النفس ويهدأ البال ٠

كذلك الأمر فى الفكر وآفاقه ٠٠ الكلمة الطيبة فيه هى الأرقى والأبقى ، لأنها غير قابلة للشك فيها ولا ترقى لها الشبهات ، ولأنها لا تخشى فى الحق لومة لائم فتجرى على كل لسان وتصمد على مدار الزمن وتقلبات الأحوال ٠٠ ومن ثم تتناقلها الأجيال حتى ولو لم تلق الهوى من بعض من لا ترضى نفوسهم بالطيبات ٠

ومن تلك الكلمات ٠٠ ما تحدث به ابن السماك يوما بينما تسمع كلماته جارية له ، ولما دخل اليها سألها ان كانت قد استمعت الى ما كان يقوله ، فأجابت : ما أحسنها كلمات لولا أنك تكثر ترددها ٠

فقال مدافعا عن كلماته الطيبات : أرددها حتى يفهمها من لم يفهمها ٠

لكنها ردت عليه بكلمات أطيب منها قائلة : الى أن تفهمها من لم يفهمها يكون قد ملها من فهمها ٠

وهذا هو داء الكلمة الطيبة ، تحار بين القابل والرافض ، وتتخبط بين الفاهم وبطىء الفهم ، وتشحب بين الحافظ والناسى ٠٠ لكنها لا تنمحى أو تنعدم ، لأن معدنها غير قابل للتآكل أو للصدأ ، ولأن حروفها منقوشة ومحفورة فى اللوح المحفوظ ٠٠ لا تشبع النفس من الاستزادة من معانيها ، ولا تمل العين من اعادة قراءتها ، ولا يكل اللسان من كثرة ترددها « اتق الله » ٠

فاذا ما تذكرنا ما دار بين ابن السماك وجاريته ٠٠ لما مللنا النداء بتقوى الله فى النقد ، ولما جهدنا من متابعة الكلمة الطيبة فيه على صحاف الصحف والمجلات ٠

* * *

من الكلمات الطيبات ما جاء على صفحات مجلة :

الوعى الاسلامى
إسلامية ثقافية شهرية

التى تواصل رسالتها الجادة فى القطر الشقيق الكويت ٠٠ منذ عامين ٠

فقد تناول الأستاذ عبد المعطى بيومى كتاب « عصر النبى وبيئته قبل البعثة » من تأليف محمد عزت دروزة ٠٠ فعرض لأهم القضايا التى تضمنها ، ولم يفته فى نهاية مقاله أن يهنئه على هذا الجهد الذى

لم يعتمد فيه على القرآن الكريم وحده ـ كما قال المؤلف ـ بل استعان أيضا وفى الدرجة الأولى على التاريخ ورواياته المطابقة لما جاء فى كتاب الله .

ومرحلة ما قبل البعثة المحمدية فى حياة الرسول عليه السلام .. مرحلة مظلمة فى الجزيرة العربية ، لم يلق عليها المؤرخون الأضـــواء الكافية التى تخلصها من المظان والتناقضات ، وانما تلقفتها أقلام .. منها المعوج ومنها الموتور ، ومنها المنصف الذى تعوزه دقة البحث او سعة الاستقصاء .

فعندما يعرض العارض فى المجلة الغراء لأهم باب بالكتاب .. ألا وهو باب العقائد والأديان .. يقول « ان من العرب من عبد أشـياء مادية وغير مادية كآلهة رئيسيه مع الله ، ومنهم من عبدها زلفى الى الله مما بشر حينذاك بخطوة تطويرية جديدة فى الفكر الدينى ، وليس فى القرآن ما يحدد الوضع الذى كان عليه تعدد الآلهة ، والأقرب أن يكون لكل قبيلة أو بطن اله ، أو لنوعى الخير والشر اله ، أو الأمرين معا .

وقد عرض ـ أى المؤلف ـ الى عقيدة إتخاذ الله أولادا وبنات ، وجوز أن تكون تلك العقيدة قد تسربت اليهم من النصارى أو غيرهم » .

ثم يواصل عرضه للكتاب فيقف عند نقطة هامة تثير النقـــاش لا لماضيها فقط وانما لارتباطها بما يماثلها فى حاضرنا العربى .. فعلى الرغم من القوة العقلية ذات المستوى الكبـير الذى كان عليـه عرب الجاهلية ، وبعد نظرهم وادراكهم لعقيدة الله ، بل وتمنيهم أن يكون النبى الموعود الذى يختلف عليه اليهود والنصارى من بينهم .. على الرغم من ذلك فقد عارضوا الرسول وشاقوه ، بل تآمروا عليه وأرادوا أن يقتلوه . والرأى المبرر لهذا عند مؤلف الكتاب هو أن تأثير كبراء العرب على أتباعهم .. بدافع الحسد والخوف على أنفسهم وعلى مراكزهم، وتصورهم للنبوة أنهـــا فوق طاقة البشر .. قد جعلهـــم يسنكرون التفاف الفقراء والأرقاء حول عقيدة النبى السمحاء .

لكن هـذين السببين وحدهما لم يكونا بكافيين لاتخـاذ هــذه المواقف التى كانت كثيرا ما تشتد وقلما تضعف ، وانما هناك عوامل أخرى .. منها موقع مكة الذى يشرف على طريق التجارة بين الشـــام واليمن ، ومنها وجود الكعبة كمجمع آلهة القبـــائل وقتذاك فى ذلك المكان .. واعتباره نقطة التقاء لمختلف العابدين فى كنف قريش ، ومن ثم فان ظهور دين جديد يقضى على هــذه الميزة التى تدر على أهل مكة دخولا واحترامات فى آن واحد .. ليسـتوجب مقاومته . أما كون كبراء العرب قد أثروا فى أتباعهم .. فليس معنى هذا أن سيدنا محمد لم يكن على غير ذلك المستوى .. اذ أنه من نفس الأسرة التى تولت الصدارة فى الاشراف على الكعبة وفى التجارة .. لذلك فان عنصر الغيرة أو الحسد لدى الكبراء لم يكن ليوجد الا بقدر سلبهم اياهم ما اكتسبوه من مكاسب

.. وبقدر ما أحسوه من فقدانهم للأيدى العاملة التى دخلت فى دين الله متمردة على الفقر والرق .

هذا بجانب ما ثبتته الأساطير والخرافات فى أذهان عرب الجاهلية عن الصورة الخيالية للأنبياء ، واستبعاد وجود واحد بينهم يماثل سيدنا موسى أو عيسى ، فعندما ووجهوا بالحقيقة والواقع الممكن ركبوا عقولهم وكابروا .

وأظن أن مساحة هذا الباب لا تسمح بمواصلة العرض ، فلا يفوتنى الا أن أقول ان هذا الكتاب يجعلنا نستمد العبرة لحاضرنا من ذلك الماضى النابض . فكم تمنينا نحن العرب أن نتخلص من ظلام المستعمر وظلمه ، وأن يمن الله علينا بمعجزة وجود رجالات أو حتى رجل يأخذ على عاتقه تنفيذ هذه المهمة .. وعندما يلبى الله دعاءهم ، ويواجههم بالحقيقة والواقع .. يستكثرون المعجزة .. لأنها ثبتت فى مخيلتهم كاستحالة من جراء أسطورة الاستعمار ــ فتكتل الكبراء الخائفون على ما اكتسبوه ، يبددون الجهود ويندون بالمعجزة .. وما هى بمعجزة ، وانما هى من ممكنات البشر وواقع التطور العربى .. فالى متى يكابر الكبراء !! وهل يتوقف غضبهم عند ظهور الحصاد !؟

ان الغضب ليس كله شرا .. فقد نغضب لحق ضائع .. لأنه حق أولا .. أما اذا كان قائما على اغتصاب الحق .. فلا يمت للكلمة الطيبة بأية صلة .. وها نحن نقرأ عن كتابات الغاضبين الألمان فى مجلة :

***

العربى

مقالا للدكتور محمود السمرة يعرض فيه لقصة « الطبلة الصفيح» للكاتب الألمانى جنترجراس Gunter Grass الذى يعتبر أشهر كاتب فيها اليوم ، ورأس شبابها الغاضب أيضا .. ومن ثم فانه قائد ومرشد بجانب كونه أديبا أو مفكرا ، لأن الكتاب الغاضبين يعتبرون أنفسهم أنهم أكثر كتاب العالم اهتماما بشئون بلادهم ، ومن واجبهم تبصير مواطنيهم بمواطن الداء .

فما الذى جاء به جراس من كلمة طيبة فى قصته الغاضبة هذه !! جاء بشاب فى مصح الأمراض العقلية هو أوسكار ، معترف بجريمة قتل لم يقترفها ، مجتر لذكرياته فى طفولته الباكرة .. فهو لم يكن يحب أباه ــ ذلك البقال الألمانى ــ أبدا ، وانما يفضل عليه صديق أمه ــ قريبها ذاك البولونى ــ ويصر على أنه أبوه الحقيقى .

وهو يتذكر أيضا أنه قد ألقى بنفسه فى مخزن خمور ليتوقف نموه ويغيظ بذلك والديه اللذين كانا يخططان لمستقبل ابنهما على غير هواه ، كذلك هو يعى أن أمه قد أهدته بعد ذلك طبلة صفيحية لتلهيته .. فكان يفعل بقرعها الأعاجيب والمذهلات .

لكن والديه قتلا عندما هاجم النازيون بولونيا . فالقى بطبلته على قبر أبيه ، وهاجر الى الراين بعد أن شعر بأن نموه قد زاد قدما

واحدة . ويشتغل حمال حجارة للقبور تارة ، وأنموذجا فى مدرسة للفنون أخرى ، ثم ضارب طبلة فى فرقة طبول .. ويضيق ذرعـــا بذلك كله فيلقى بنفسه الى هذا المأزق الذى اعترف فيه بارتكابه لجريمة القتل التى لم يقترفها ، فيلقى به أخيرا فى هذا المستشفى .

ان الكلمة الطيبة هنا تستعين بالرموز والايحاءات على استصفاء معناها .. فالبطل أوســـكار .. شاب قزم متمتع بكفاءات متعددة ، يستطيع أن يأتى بالأعاجيب ، ويمكنه أن يثور على أبويه عندما يريدان اجباره على سلوك مستقبل معين ، لكنه ثورته تجد من هو أعتى ، تجد أن الهجوم النازى قد قتل من ثار هو عنيهما — على أبويه ، وزاد على ذلك القتل بأن أخرسه ، فلم يجد مخرجا غير أن يعمل حمال حجـــارة أو يكون هو أشـــبه بالحجر فيعمل كأنموذج أو كتمثال فى مدرســـة للفنون ، أو يطبل فى فرقة طبول يتبدد صداها ، وهنا نحس قـــوة المعنى الغاضب الذى يستهدف الخير لشباب ألمانيا .. فهو ملء بالطاقات والكفاءات ، لكنه مشتت ضائع بين نقيضين .. احداهما — كما يقول هاينزفون كريمر « مترفة تعتنى بكل ذرة فى جســـم الانسان ، ولكنها تنسى أن لهذا الانسان عقلا ، وثانيتهما أقل شغفا بالظهور ، وتهتم بعقل الانسان ، ولكنها تريد أولا أن تغسله لتحشوه بما تريد . » .. وهنا تتجسم لشباب ألمانيا مرارة الكلمة الطيبة .. فتدفع بهم الى فعل .. أى فعل ، وليكن قصة « الطبلة الصفيح » . فهل ترضينا غضـــبة كبراء قريش الموتورة ، أم غضبة شباب ألمانيا الحارة ؟!

ان الأوائل قد غضبوا لمنافعهـــم الفردية ، أمـــا الأواخر فهم غاضبون لعدم توحيد دولتهم حتى الآن .. فهل يماثل هذا حال دولة العرب غير الموحدة ؟! مرحبا بالاجابة ذات الكلمة الطيبة ولكن غاضبة .. فها هى مجلة :

***

الطليعة

تعرض لأدب المقاومة فى أرض فلســـطين المحتلة فى كتاب من تأليف غسان كنفانى .. فيحلل نوعية هذا الأدب ليجده قد تمثل فى الشعر بنوعيه « التقليدى والشعبى الحر » ، ويتتبع منابعه داخل الوطن السليب .. فيجده متناثرا فى القرى التى حددها الصهيونيون لسكنى العرب .. معنى هذا أنه شعر ذو مسحة بدوية أو قروية .. أما ان كان فى المدن نتاج أدبى عربى .. فهو الأدب « الرسمى » الذى سمح به الرقيب الاسرائيلى أولا .. ومن ثم فلا يمكن أن يعبر بشىء عن مشاعر المرارة نحو مأساة الوطن .. خصوصا وأنه لا يتعدى الخمســـة عشر ديوانا ، أما ما يبدعه أبناء فلسطين الذين هاجروا منها بعد النكبة .. فهو يعد من أدب المنفى الذى يغلب عليه الشوق والأمل وذكريات المحنة، لكنه تنقصه حيوية اللحظة وواقع المعاناة على الارض السليبة نفســها .. وذلك بالرغم مما يكون عليه من ارتفاع المســـتوى الناتج عن التحامه واحتكاكه بالتيارات الأدبية المتجددة فى العالم .

ولهذا فان أدب المقاومة فى قرى فلسطين .. ولو ان العزلة تعيبه،

لكنه أصدق تعبيرا عن واقع المأساة • لكننا لا نستطيع أن نوافق غسان كل الموافقة على هذا الحكم القاطع ٠٠ فمن ينفى أن شعر المنفى قد يكون أعمق تعبيرا وأرحب تناولا لواقع الحال من ابعاد وزوايا قد تغرب أو تخفى عمن أيديهم فى النار !؟ ، ومن قال ان صدق التعبير الفنى وقف على تجربة الواقع الحال !؟ ، ومن قال ان الشوق والحنين الى الوطن لا يمثلان قوة الانفعال !؟ ان عناصر الابداع الفنى لأشمل وأبعد من أن نقصرها على الواقع المعزول • أما ان قلنا ان الالتصاق بالأرض الحبيبة التى سالت فوقها دماء عزيزة يثير الشجن وينبش قبور الذكريات ٠٠ فيحيى جذوة الثأر أو يضاعف الرغبة فى طرد الصهاينة ٠٠ نقول أيضا ان الحاح العودة الذى يسيطر على الأديب المنفى يماثل فى القوة رغبة المعزول فى طرد من تسبب فى عزلته • والا فما الرأى فى تلك القصيدة التى جاء بها غسان من داخل فلسطين ٠٠

على الأنقاض وردتنا

ووجهانا على الرمل

اذا مرت رياح الصيف

أشرعنا المناديلا

على مهل ٠٠ على مهل

وغبنا على أغنيتين ٠٠ كالأسرى

نراوغ قطرة الطل •

ثم يواصل الشاعر من داخل فلسطين المحتلة قوله

يشدنى أصلى

الى اغفاءة زرقاء

تحت الشمس ٠٠ والنخل

بعيدا عن دجى المنفى

قريبا فى حمى أهلى •

مشاعر طيبة حقا ، وكلمات أطيب من المشاعر ٠٠ ولكن ماذا يقول ؟ « على مهل !! ٠٠ على مهل » ، ويطمئن « بعيدا عن دجى المنفى ، قريبا فى حمى أهلى » !! فالكلمات الطيبة ان كانت تنم حقا عن حسن النية وصدق الشعور ، الا أنها لا يصح لها أن تنساق أو يتمادى صاحبها فى حسن نيته الى درجة أن يرمى بصفة أخرى غير طيبة القلب • لذلك فان حسن النية هنا يدفعنا الى القول بأن أدب المنفى أكثر حرية فى التعبير عن حقيقة المأساة أكثر من أدب العزلة فى الداخل الذى يقع تحت طائلة الرقيب الاسرائيلى فى المدن والقرى على السواء •

ومن الكلمات الطيبة جدا ٠٠ ما كتب عن الماسونية فى مجلة :

... فقد عرض صالح جودت لكتاب « الجمعية الماسونية خصائصها وخفاياها » تأليف دكتور أحمد غلوش ٠٠ فكشف في هذا العرض عن الصلة الخفية بينها وبين الصهيونية، وعندما نقرأ ما كان يقال لكل عضو ينضم جديدا اليها في حفل تكريسه ، نعلم مدى الطيبة المتناهية التى كان عليها بعض المواطنين ، ولا يزال بعضهم يتسمون بها في بقية الأقطار العربية ٠٠ لكن ثورتنا الواعية قضت على جذور هذه الماسونية بيننا ، ولم يبق الا استئصال شأوتها في أنحاء عالمنا العربي، واذا ما عرفنا المراسم المخجلة المزرية التى يكرس بها ذلك العضو الجديد ٠٠ لأدركنا مدى المهانة وانحطاط المستوى الخلقي الذى قامت عليه مثل هذه الجمعيات ٠٠ « اعلم أيها الطالب أنك قادم على أمر جلل خطير ذى بال ، فها هنا من الأسرار التى سيكشف لك عنها ما اذا أبحت به لأى أجنبي ، فانك قتلا ستقتل ، وموتا ستموت » ٠

فما هى هذه الأسرار الخطيرة ، التى يكون في الكشف عنها أو الافشاء بها هلاك ؟!

وما هو هذا النوع من الانسانية ، الذى يباح لأناس ويحجب عن أناس ؟!

وما هو هذا الخير البشرى ، الذى يحتكر لأفراد دون بقية البشر ؛ بل ما هى هذه المحبة الماسونية ، التى تستعذب القتل لمن يفيض بها على الآخرين ؟! وأخيرا ما هو هذا الاذلال ، الذى يجبر كل عضو على الاستسلام ٠٠ فيكتم مالا يصح السكوت عنه ! أظن أن هذه التساؤلات تجد تفسيرا لها فيما احتوته تعاليم الماسونية من محاورات ورموز أخذت كلها من التوراة والتلمود والكتب المقدسة عند اليهود ٠

لكن المؤلف قد فاته ــ عن حسن نية طبعا ــ وهو يحصى أسماء مشاهير أعضاء الفرقة الثالثة من الماسونية المعروفة بالكونية ، فاته أن يذكر بلفور صاحب الوعد المشئوم ، وسمطس أعتى عتاة التفرقة العنصرية ، وترومان أول معترف بدولة اسرائيل في العالم ، ولا أحب أن أقول ان طيبة قلب المؤلف كرئيس سابق لمحفل الاسكندرية هى التى جعلته يتذكر الرفقاء لينين وتروتسكي وستالين كأعضاء ماسونيين وينسى هؤلاء الأعلام على مساندة الصهيونية والتفرقة العنصرية ٠٠ خاصة وأنه قد أفاق من تلك الطيبة منذ سنوات ٠

أما كتاب « مفارق الطرق الى اسرائيل » تأليف كريستوفر سايكس ٠٠ فهو نوع آخر من الأسرار ــ ولكن ــ غير الماسونية ٠٠ عرض لها خيرى حماد في جريدة :

فقال ٠٠ « من أهم الأسرار المثيرة التى يحسر المؤلف النقاب عنها داعما اياها بالوثائق ، الأدوار التى مثلتها الرجعية العربية ممثلة فى بعض حكامها من العملاء ، فى قضية فلسطين وضياعها ٠٠ فهو يحدثنا عن الاجتماع الذى تم فى جدة بين الشريف حسين بن على وبين هوجارت رئيس المخابرات البريطانية فى القاهرة ١٩١٧ ،وعن الاتفاق الذى توصلا اليه فى هذا الاجتماع ، والذى يتضمن بين ما يتضـمنه ، الاعتراف الضمنى من الشريف حسين بوعد بلفور ، وباخراج فلسطين من الدولة العربية التى كان يريد من حليفته بريطانيا أن توليه رئاستها ، وهـو يتحدث بكثير من الاسهاب والتفصيل عن اجتماعات وايزمان فى العقبـة وباريس ولندن ، وما تم بينهما من اتفاق حول الاعتراف لليهـود بالوطن القومى ، والسماح لهم بالهجرة الى الدولة السورية » ٠

الا أن الكتاب يبدو من العرض له أنه على الرغم مما فيه من أسرار مذهلة ، وأمانة فى ذكر جوانب الموضوع ، فانه قد ساوى بين موقفى الطرفين ــ العرب والصهاينة ــ ومشروعية مطالب كل منهما ٠ فهـل يؤمن مؤلف الكتاب بأن المساواة فى الظلم عدل ! أم أن مجرد موافقـة الشريف حسين على وعد بلفور وتهجير اليهود تكفى لاكســاب مطالب آل صهيون شرعية ! ان منصب الشريف حسين فى تلك الآونة لم يكن يخوله مجرد حق التحدث باسم الجزيرة العربية وحدها ، فكيف يدعى هذا الحق باسم العالم العربى ، أو حتى باســم الدولة التى يســعى لتكوينها ؟! لم يكن من حقه أن يعطى كلمة أيا كان نوعها طيبا أو خبيثا ٠٠ ذلك لأن « الكلمة الطيبة صدقة » فليس له أن يتصدق بما لا يمتلكه ٠

وقديما قالوا « فاقد الشىء لا يعطيه » حتى ولو كــان الشىء كلمة ! كلمة طيبة ٠

« جمال بدران »